خالد محمد خالد



# مع الضمير الإنساني

## في مسيره ومصيره

المقطم للنشر والتوزيع

# مع الضمير الإنساني

## في مسيره ومصيره

ظهرت الطبعة الأولى

من هذا الكتاب فى يناير ـــ ١٩٦٣

الطبعة الثالثة

١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م



دار المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ريحان ـ عابدين ـ القاهرة

تليفون: ٧٩٥٨٢١٥ ـ ٧٩٤٦١٠٩

فاكس: ٥٠٨٢٢٣٣

email: elmokatam@hotmail.com

خالد محمد خالد

# مع الضمير الإنساني

## في مسيره ومصيره



# فى هذا الكتاب

# مقـــــدمـــــة

لا وَقت عندنا لمقدمة طويلة، فإنى لا أريد أن أُرجِئ لقاءكم مع الموضوع والكِتاب ..

وإذا كان لابد أن يكون لكل كتاب مقدمة تُعرِّف القــارئ بغَرضه ومِنهاجه، فدعونى أصنع هذا فى كلمات سريعة.

• إن هذا الكتاب يُمثِّل رُؤية تاريخية لموكـــب "الضمـــير الإنسانى" فى رحلته، منذ بدأ مَسيره حتى يومنا هـــذا . رُؤيـــةً تسعى إلى استْجــلاء الخصائص التى يقود الضمير بـــها قافلـــة الإنسان صوْب كمالِها المقدور، كما تُحاول استِشراف المستقبل الواعِد لبنى الإنسان من خلال التجربة الحيَّة للضمير.

• ولَئن كان ثمَّت ما تعـــارفَ النـــاس علـــى تســـميته بـــ"الضمير الدولى" أو "الضمير العلمى" أو"الضمـــير الديـــنى"

أو"الضمير الاجتماعى" ـ فإننا نعنى بـ"الضمير الإنسانى" ما هو أعمُّ من هذا كله، وأكثر شمُولا .

نعنى به تلك البَصيرة التى أفاءها الله على الجنس البشرى فى مجموع أفراده. وعبقريَّاته، ورؤاه.. نعنى به إرادة التفوُّق التى تقود بإلحاحاتها النبيلة وحَدْسِها القويم، جميع العائلة البَشرية لتعانق مصيرها الخيِّر العظيم .

• وبحثُنا هذا يقوم على فَرْض ..

فحْوَى هذا الفرض، أن الضمير مشيئة حيَّة تعمل فينا، وأنه سَبق العقل فى الظهور وتفوَّق عليه، وأنه بدأ ـ يوم بدأ ـ رشيدًا واعيًا، كأنما معه من الله نور، وأن رُؤاهُ التى هتف بها حتى من ألوف السنين كانت واضحة الرُّشْد، وأما السَذَاجة التى صاحبت وسائل التعبير عَن تلك الرُؤى، فلم تكن مِن عمل الضمير ـ بل كانت من عمل العَقل الناشئ والفكر المُبْتدئ ..

وليس معنى هذا أن الضمير وُلِد كاملا، وأنه لاينمو.. كلا، لقد وُلد يحملُ رُشده، ويعرف بطريقة ما طَريقه، ثم هو بعد هذا ينمو ويتكامل مع الزمان .

وقد تسألون: كيف يَنهض بحثٌ كهذا على مجرد فرض..؟؟

وأجيبكم: إن "اينشتاين" ـ كما يقولون ـ، قد بنى نظريته فى

النسبية على اثنى عشر فرضا لم يكن بينها فرض واحـــد يمكـــن التدليل على صحته، ومع هذا فقد أفْضت تلـــك الفـــرُوض إلى نظرية النِّسْبية بكل ما تنطوى عليه من يقين وإعجاز ..!!

وصحيح أنه لابد أن يَكون للفُروض أساس منطقى حـــتى يمكن أن نتوصَّل بـــها إلى المعرفة واليقين العملى.. وأقول لكـم: أن فَرْضًا الذى ينهض عليه هذا الكتاب، له من الجدَارَة المنطقيـــة والتاريخية حظ كبير، يبدو هذا واضحًا ومُبينًا ونحن نبصر مـــن خلال الرحلة الطويلة للضمير، اتجاهَه الفذَّ نحو المصير الإنسانى فى وَحدة، وتكامُل.. وفى ألْمعِيَّةٍ لا تكاد تُخطئ، وتقدير لا يكـــاد يتعثّر..!!

• ففى "عصر الرؤيا"، نرى الضمير الإنسانى يستشـوف فى حِذْق كل رَحِمٍ مكنونة بين البشرية والكون، والعالم..!!

وفى"صُحبة النبوَّة" نرى الوحْى يُزكىِّ الكثـــير مـــن رُوَاه السَّالفة، ويمنحه من نور الله ما يشدُّ رُشده ويُثبت خطاه .

وفى "عصر العقل" نجد العلم بكل قوانينه، والإنســـانيات بكل جَيَشانِها وبـــهائها، يحملان المِشعل لِيُتِمَّـــا بـــه كلمـــة الضمير..

• وفى عصرنا هذا، الذى أسميناه "عصر غاندى. والـــذَّرّه"

يتمثل فيه كما قلنا فى ختام الكتاب نهاية مَسِير.. وبداية مَصير..!! فيستبين للبشرية طريقها الأوحد. ويستكمل الضمير وَحدته ورُشده

* * *

وبعد، فقد خرجتُ من هذا الكتاب بيقين لاريب فيه.

هو: أن الأرض لن يرثها دُعاة الفتك، ولا أولياء التخلف، ولا حَملةُ الكراهية..

بل سيرثُها عبادُ الله الوُدعَاء.. بُناةُ الحق والحُبّ.. صانعوا السلام والرحمة.. أولياء الإيمان والعقل.. أصدقاء الإنسان والحياة.

**خالد محمد خالد**

## الفصل الأول

# فى عَصر الرُّؤْيـا ..

أُلفى الإنسان نفسه جزءاً من حياة فذة. تعمل داخل كـون لا تنتهى عجائبه .

وفى البيئة القرية منه والتى تُمثّل عشيرته الأقربـين كـان يرقب المشاهد فى دهَش .

فالماء يجرى . وتجرى الحياة فى أثره .

والأرض تهتز بالزرع الطالع . تحمله فى عَناء، ثم تلِـدُه فى حنان.ثم ترعى مع الشمس شبابه، حتى إذا جاء ميقاتهُ المعلـوم أسْلَمته قرباناً للإنسان، وتَلقّفته مناجل الحصاد ..!!

وتعود الأرض، فتتلقّى البِذارَ من جديد، والغِراس.. وتُعاوِدُ كرَّتها، فتحمل وتلد، وتُعطى القرابين.

والإنسان.. ما الإنسان ..؟

إنه كَهاتِيك المواليد من الزرع.

تلده الحياة. وتدفعه الأرحام إلى أبهاء الوجود، ثم تلقَفهُ مَناجلُ الموت حين يجيء ميعاده .

بينما الحياة فى نشاطها الخالد لاتنى.. مواليد فى إثْر مواليد..!!

ويرنو ببصيرته إلى البيئة العليا.. هناك فى الأعمال البعيدة.. عند ذلك السَّقف المرفوع فيرى نفس المشهد .

الشمس تطلع كل صباح من المشرق، وتعبُر الآفاق فى رحلتها الجليلة وموكبها الأبدى، حيث تأوى آخر النهار لمستقرها فتهبط إلى مخدعها، ويموت يوم..

وفى الصباح تعود الشمس، ويُولَد يوم جديد. والقمر يطلع ذات ليلة على استحياء، خيطا من الضياء رقيقًا، وهنَانًا، مُقوَّسًا ثم ينمو ويكتمل بهاؤه، ثم ينسحب من الحياة رُويدًا، رويدًا، حتى يختفى، ويختفى معه ضياؤه.. إنه يستريح من رحلته المضيئة ليعُود ويستأنفها من جديد ..!!

والرياح تجرى مُرسَلةً وعاصفة .

والرعود، والبروق، تروح وتجئ مُذكِّرة ومنذرة..

ما هذه العجائب..؟؟ وأيَّان مُرْساها ..؟؟

كان الناس يَحدِسون، ويفكرون .

وكان الضمير الإنسانى فى مَقره المستكنّ يرصد ويتفحَّـص. ومَن يّدرى.. لعله كان أيضاً يتذكر ..

على أية حال، فها هو ذا يبصر فيما حوله مـــن مشـاهد الكون والحياة جلالاً واقتدارًا .

فهل يرهبـــها.. هل يحبـــها ..؟

هل يدْنُو منها ..؟ أم يُعرض عنها ..؟

هل يُسْلِمُها سمعه ليسمع هَمسَها ونَجْواها، أم يجعل بينــــه وبينها سَدًّا ..

الحق، أنه لم يكن له حق الاختيار فأين المفر ..؟!

إنه مهما يهرب من الأرض فإلى الأرض .

أو من الشمس ، فإلى الشمس ..

أو من الحياة والموت، فإلى الحياة والموت ..

إن خير ما يصنــــع إذن أن يتعـرف إلى هـــذه القُـــوى والكائنات.

وأن يَعْرِض عليها صداقته وإخاءَه.

فلننظر كيف سيمضى الضمير.

إن أمر هذه العائلة لعجيب حقاً !!

العائلة التى تُذهلُـــه الآن بحركتــها إنْ فى الأرض وإنْ فى

السماء. لابد أن لها عائلا كبيرًا، فإذا أراد أن يتعرف على العائلة كلها، فلا مناص من البدء بعائلها وكبيرها ترى ماذا يكون؟ ربًّا.. أم مَلِكًا.. أم أبًا ..؟

فليكن أى شىء من هذا ..

المهم أن يرحل إليه ويقرع باب داره، ويقول له: إنى أعرض عليك وعلى كَوْنك صداقتى؛ وصداقة الجنس الذى أمثله.

ولكن أنَّى له هذا الحكم السريع..؟ الحكم أن لهذه العائلة أبًا وعائلا ..؟

تلك هى سُنة الحياة كما يراها .

فلكل نبتَة خضراء، زارع يزرعها ويرعاها .

وهذا الكوخ، أو البيت ، له بانٍ بناه .

ولكل محراث صانعه، ولكل حديقة بستِانيُّها ..

ولكل عائلة من بنى الناس أبوها .

فهذا الماء الذى يجرى.. والقمر الذى يبزُغ.. وصاحبة الجلالة "الشمس" التى يتحرك موكبها المهيب كل يوم وكأنها تستعرض رعاياها.. وهذه الرياح التى تسبح وتمرح حين ترضى.. وتزمجر وتدمِّر حين تغضب .

أليس لها "أبٌ" ولدها.. أم تراها ولدَت نفسها .؟

إنه يستطيع أن يرى وراء كل شيء في دنياه أباه وصانعَه.

فمن هو"الأب" الذى ولدَ هذه القُوى..؟ ومــن البــارئ الذى خلَق وسوَّى ..؟

لكنْ، هذه الشمس .

ـ وكذلك القمر، والريح، والســماء، والأرض، والنــهر، والبرق ـ بقوتــها الخارقة، وحركتها الدائبة، وطاقتها العارمــة وسِرِّها المخبو.

أتشَجَّع على الاقتراب منها فضلا عن عقد أواصر الصداقــة معها ..؟!

إنــها عوالم أخرى لا تمتُّ للإنسان بصلة ..

عوالم أخرى ..؟؟؟

كيف..؟ وهي جزء من حياتنا، وحياتُنا جزء منــها إننــا جميعًا نولَد.. ونموت.. ونبعث .

كلنا.. الشمس، والقمر، والزرع، والإنسان، والحيوان. إن هذا ليُشجع على أن يكون بيننا وبين هذه القُوى إلف وزمالة .

صحيح أنها رهيبة، ومحيرة، وتشع منها قداسة عُلْوية .

بَيْد أنَّ صداقتها رغم هذا كله. هي خير سبيل لفهمــــها، وتَجنُّب بأسِها .

وإذْ كانت الصداقة بين صغير وكبير.. بين الإنسان الضعيف وبين القوى التى يبدو أنه مَدين لها بحياته وبقائه. فستأخذ من أجل هذا طابع التقديس والعِبادة ..

وأى بأس ..؟؟

نعبدُها ؟؟ ليكن ذلك وهل العبادة إلا التوقير فى مُستوىً أعلى.

ولماذا لانُوقِّرها، وهى ـ فيما يبدو ـ أهل لكل توقير؟!

هكذا ـ فيما نحسب ـ كان حديث الضمير مع نفسه فى فجر حياته.

إنه يقترب من أفراد العائلة المقدسة جميعًا، ويعطيهم حبه وصداقته وتقديسه .

وإنه لشئ باهر حقاً، أن يبدأ الضمير عمله بعقد صداقة بين الجنس البشرى والكون بأسره ..

إن كثيرًا من المؤرخين، وفلاسفة التاريخ الذين يقفون عند هذا الشُّروق للضمير الإنسانى لايرون وراء عبادة تلك القُوى سوى التخبُّط والخوف .

أما نحن، فدعْنا نذهب إلى الرأى الآخر.. دعْنا نقُل فى غير مُغالاة: إن الضمير الإنسانى كان يعرض صداقته على الكوْن

لكى يطمئن إليه ويفهمه جيدًا.

وكانت طقوس العبادة التى تـــرك النـــاس يمارسونـــــها يومذاك. شعائر هذه الصداقة الكونيّة المبكرة .

صحيح أنه سيكون ثَمَّت تخُبط، بيد أن التخبط سيكون فى الأشكال والطقوس، لأنها من عمل العقل واختراعه أما "الرؤيـــا" نفسها..أما"الجوهر" ذاته، فأمر عظيم باهر العظمة.. هذا الـــذى تحاول حضارتنا اليوم فى ذروتـــها أن تصنعه. مصافحة الكـــون وفهمه..!

إن"الفكرة" ذاتـــها من وحى الضمير وعمله .

أما تنفيذها فمتروك للعقل.. والعقْل يومئذ رغم مهارتـــه فى الحضارة العمرانية والعملية، فإن قدرته على التخطيط الروحـــى كانت محدودة وقاصرة .

من أجل ذلك ستجىء وسائله فى التعبير عن رُؤى الضمـــير ساذجة وغريرة .

وهى تبدو ساذجة وغريرة اليوم، بعد خمسة آلاف سنة من حدوثها.. وبعد أن نخلعها من إطارها الزمنى، ونخرجها من بيئتها التاريخية، ثم ننثرها اليوم تحت أعيننا، ونقيسها بمقاييسنا فى القـــرن العشرين.. تلك المقاييس التى أثمرتـــها تجارب خمسة آلاف عام،

لم يكن منها مع العقل الإنسانى يومذاك شىء !!

* * *

لقد اتجه "الضمير الإنسانى" إلى مؤاخاة الكـــون فى ذلــك المطلع البعيد.. وأملى على قُوى الذهن مشيئته.

ولسوف نجد"جوهر" هذا الاتجاه موجودا يومذاك فى كــل مكان يوجد فيه بشر متحضرون .

سنراه فى مصر القديمة.. وسنراه فى أشـــور.. وفى بـــابل. ولكن ستختلف وسائل التعبير باختلاف طبيعة التفكير فى كــل بيئة وبلد .

* * *

والضمير وهو يُحسُّ الحاجة لهذه العلاقة وهذه الصداقـة ثم، وهو يُضَمِّنها أعلى درجات التوقير، وهى العبـــادة، لاينســى ـ وحقًا لكَم كان فى هذا باهرًا ـ نقول لاينسى أن يقيـــم هـــذه العلاقة على التوقير المتبادَل، والتكافؤ الملحوظ .

فحين يخلع على هذه القوى السيادة والالوهة، سنراه يخلعها كذلك على الإنسان .

وإذا كان الإنسان سيتجه بالعبادة والتقديس لقُوَى الكـــون هذه، من شمس وكواكب، وماء وأرض، وفى صورة ابتـــهالات

وقرابين؛ فإن هذه القوى نفسها ترد إلى الإنسان التحيَّة بأحســن منها، وذلك بعملها الدائب فى سبيل حفظ حياته واستمرارها.

بل إن هذه القُوى هى البادئة بتحيَّة الإنسان، وذلك بعملها من أجله منذ مجيئه الأرض، وقبل مجيئه..!!

إن الضمير يُحيِّى هذه القوى إذن ويُحيِّى الإنسان معها إنـه يُحيِّى أصدقاءه الجدُد المعظّمين .

فليكونوا إذن سادة، وليكونوا آلهة، وليكن الإنسان عضــواً فى أسرة الآلهة .

ترى، لماذا مادام"الإنسان" موضوع تكريم هذا الضمــير، لم يضع الضمير صفة"الإنسانية" مكان صفة "الألوهية" ..؟

لماذا لم يُسَمِّ هذه القوى العظمى"أناسِيَّ" بدلا من "آلهة".؟؟

إن فى هذا لبرهانًا آخر على صدق حسِّ هذا الضمير.

إنه مع تقديسه نوعَه الإنسانى. لايرى فى الإنســـان ولا فى الإنسانية كلها حلَّ اللغز الخفى الكبير الذى يحيط به ويُحــيِّره.. إن الإنسان جزء من اللغز، لاأكثر .

فالإنسان، ليس هو الذى أنشأ الأرض التى تخرج الــــزرع والثمر، وتحمل على ظهرها الناس والأنعام ..

والإنسان ليس هو الذى خلق الشمس والقمر والنجوم..

والإنسان ليس هو الذى خلق المياه التى تَلِد الحياة والأحياء.

فلابد من وجود قوة أعلى .

أنسمى هذه القوة"إنسانية" ..؟؟

كيف؟ والإنسان مجرد مظهر من مظاهرها، وآية من آياتها..؟ إنها شئ أكبر ..

إنها "الألوهة" ..

* * *

ولكن إذا كُنا جزءًا من هذا اللغز الكبير. من هذا الكون العظيم ، فلماذا لانبقى بقاءه ...

إن النهر يموت. لكنه يحيا وتتجدد حياته عند الفيضان كل عام، فالموت بالنسبة له غياب عارض، والخلود هو القاعدة..

والشمس تموت كل يوم فى الغرب، وتقضى الليل كله فى بَرزخها الروحى، لكنها تعود للحياة كل صباح، فهى خالدة والأرض تموت حين تقفر من الزرع وتبقى هامدة.. لكنها تعود إلى الحياة فتهتز خضرة وبهجة وعَطاء، وهى إذن خالدة.. والنجوم تموت فى النهار؛ وتُولد فى الليل.

وهكذا تبدو الحياة حركة دائبة يتناوَبها الوضوح والخفاء

والحضور والغياب.

وإذا كان الغياب يعنى الموت؛ فإن الموت كذلك لايعـــنى شيئاً سوى الغياب .

وما دام كل شئ يموت ويحيا، يغيب ويعود، فالإنسان ليس بمعزل عن هذه العملية الكبرى التى تحتضنها ديمومة ليـــس لهـا منتهى .

إنه إذن لايخضع لفناء نهائى مطلق .

بل إن له لبَعْثا وعَودة بجسده ونفسه، أو بنفسه فى جســد جديد .

المهم أن الموت ليس إلا اللّيْل الذى يخترم طريـــق حيـاة الإنسان ـ أى إنسان ـ وسيعود الموتى إلى الحياة، أو تعود إليــهم الحياة، فوراء كل ليل صباح .

هناك إذن"كَوْن" ، والإنسان جزء منه .

هناك إذن " أُلُوهة "، والإنسان جزء منها .

وهناك إذن"خلود" ، والإنسان جزء منه.

وكما ذكرنا من قبل، لن تقتصر رُؤى الضمير الإنســـانى هذه على بلد دون آخر .

بل سنلتقى بــها فى العالم القديم كله .

فى مصر القديمة.. وفى أشور.. وبابل.. وفى الهند والفرس، وأثينا.

ولن يكون ثَمّت تباين فى وسائل التعبير عنها .

والآن، فلننظر كيف سارت التعبيرات الإنسانية عن هذه الرُؤَى والكُشوف خلال المسلَك المتباين والتطبيقات المختلفة فى تلك الحضارات القديمة .

وبتعبير آخر، لننظر "عملَ الفكر" تِجاهَ "رُؤى الضمير"

على أنه لاينبغى لنا الظنّ بأن الفكر سيعمل بمعزل تام عن الضمير فى هذه القضايا وفى سواها من القِيمَ التى سيُوالى الضمير كشفها.. إنهما يعملان معاً فى تفاهم وثيق .

بيدَ أنّ الضمير وهو يتابع كُشوفه ورؤاه ويتلقّى انعكاساتها المتجددة عليه ويحتضن نموها المتزايد فى داخله.. وإنما يفعل ذلك فى حدود علاقته بجوهر الحقيقة لابأشكالها ..

فهو مثلا يُحِسُّ الألوهة، بجرد الألوهة هذه القوة التى تتمثّل فيها، وتنطلق منها كل طاقات الحياة .

ولكن هل هذه الألوهة مُشخَّصة أم مجردة.. واحدة أم متعددة .

إن الفكر سيمضى فى تفسير ذلك كله وَفق تجربته، فتارة

يُشخِّصها وتارة يجردها.. ومرة يبثها فى قوى الكون .وأخــرى ينقُلها إلى الأوثان والكهنة .

والضمير فى نفس الوقت ماض يــوالى اســتجلاء رُؤْيــاه وحَدْسِه، فبعد حين يشرق فى باطنه جزء آخر من الألوهية تتمثل فى هذا الجزء وحدانية الإله.. وهكذا يمضى سَنَنُه ونهجُه تجاه كل كُشوفه ورُؤاه.

ولعل سؤالا يواجهنا الآن:

ـ أين كان الضمير من هذه الغَرارَة الفكرية المُتبدِّية فى تعبير الفكر عن رُؤاه .

ولماذا لم يرسم الضمير للفكر الأسلوب السَّوىَّ والمنـــــهج الصحيح..؟

وإذا كان قادراً على استشراف الحقائق، وكشف القِيــــم وامتلاك"الرؤيا" التى يستطيع أن يتعرف بـــها إلى جوهر الأشياء فلماذا لم يستعمل مواهبه تلك فى هدايـــــة الفكـــر إلى التعبـــير السديد..؟؟

والجواب فيما نرى يتلخص فى:

أولا: أن الضمير الإنسانى لايعرف كل شىء، وهـــو وإن يكن يمثل "العقل الأعلى" فإن المجهول لايتكشف له إلا بقـــدَر،

وفى ميقات.

ثانيا: أن الضمير الإنسانى يدرك أن فعَالِيَّة الإنسان كامنة فى قدرته على الحركة الحرَّة. والاختيار الطليق وهو لهذا لايحدّ من حركته ولا يتحكم فى اختياره، فإنه لو فعل يكون قد وضَع فى طريق نُموِّه العقبات.

إن كل نمو يُحرزه العقل والفِكر لخَيْرُ مِعوان للضمير على بلوغ أغراضه، وتحقيق إراداته .

وإذا كانت الحرية شرط نمائه، فإن الضمير الإنسانى لن يكون بحاجة لإدراك أن الخطأ الذى يجىء معه النُّمو خير من الصواب الذى يُخيم معه العجز والإخفاق .

* * *

والآن، فهاهو ذا الكون القريب من الإنسان يموج بالآلهة

فالهواء إله ، اسمه"شو"

والأرض إله ، اسمه"غب"

والسماء إله، اسمه"نوت"

والشمس إله، اسمه "رَع"

وسيخطو الضمير خطوة يتعرف فيها إلى رَب هذه الأسرة الكونية كلها .

فليكن هذا الإله"رع" فى مصر، أو"مَـــرْدُوك" فى أشـــور أو"براهما" فى الهند .

وليتصوَّر الفكر الأسطورى الآلهة على النمط الذى تمليـــه عليه خبرته وسذاجته فى كل مكان من ذلك العالَم البعيد .

إن ذلك جميعه ليس أكثر من تنوُّع للصورة وتعبير عن رؤيا الضمير .

وخلال هذه التغييرات جميعها علينا ألا تشغلنا الكلمة عـــن "الفكرة" ولاالشكل عن"الجوهر" ..

ويتساءل الضمير .

ما مكانُ الإنسان من الإله فى حركة الحياة كلها ؟

وما منـــزلة الناس لدَى الإله ..؟

وتجيب الأسطورة المصرية القديمة قائلة :

"لقد صنع ـ الإله ـ السماء والأرض حسب مشيئته.

وصدَّ وحْش المياه وصنع نَفس الحياة لخياشيمهم ..

إنـــهم صُورٌ له انطلقت من جسده "

الناس إذن صور الإله انطلقت من جسده حسب التعبـــير القديم .

وبتعبيرنا الحديث اليوم الذى يُقره الدين ذاتـــه ـــ تصبـــح

العبارة القديمة هكذا ـ "فى الإنسان ألوهة".

كذلكم كان العراقى القديم فى ذلك الزمن البعيد حين يريد تحصين نفسه، يهيب بقوى الألوهة الكامنة فيه فنراه يقول:

"إنليل رأسى ـ وكـــان إنلل فى تفكيرهم إلاهـــاً "

"والنهار وجهى . . . . . . . . . . . . . . . . . . "

"وأوراش الإله الفذ، هو الروح الحامية التى تهدى خطاى "

"عُنقـــى قلادة الإلهة إنليل . . . . . . . . . . . . "

"وذراعاى منجل الإله الغربى . . . . . . . . . . . . "

"وأصابعى من عظام آلهة السماء . . . . . . . . . . "

على أنه لم يكن الإنسان وحده مَجْلى الألوهة.. بل كل أشـــياء الطبيعة وذرّات الحياة .

فما نعدّه اليوم من عالم الجماد أو النبات، كان يومـــذاك طاقة إلاهية على أسرارها البالغة ـ فالبوص مثلا ، عنـــد أهـــل الرافدين، وقبل الميلاد بثلاثة آلاف عام، لم يكن مجرد "بُــوص".. لم يكن مجرد نبات.. بل يتضمن إرادة إلاهية، وقدرة إلاهية هـــى التى تجعل"البوصة" تصدح بالنغم الحلو حين تكون"نايًا"، وهـــى التى تجعلها تَنثر الحكمة، حين تتحوّل إلى"قلم" ..!!

والمِلْح ـ مثلا ـ يتضمن نفس الإرادة والقوة .

من أجل ذلك، كان"الأشورِىّ" القديم يُناجيه حين يُلم به مـرض فيقول :

"أيها الملح

"حُلَّ عنى العقدة :

"وكخالِقى، أرفع المجد والتسبيح لك .."

والقمح ـ مثلا ـ فيه ألوهة. ومن ثم فهو يصلح قربانًا وسفيرًا بين الإنسان والإله .

من أجل ذلك فحين يقدمه البابلى القديم قربانـــا للإلـــه، يستقبله فى خشوع ويناجيه قائلا:

"إنى أرسلك إلى إلاهى.

"فقد امتلأ قلبه سُخطا علىّ ..

" أصلِح بينى وبينه ... "

* * *

وتظل فكرة الألوهة تتبلور وتتحدد فى مصر القديمة تحـــت ضغط الضمير ودفعه، حتى نراها تفقد رويدا رويدا الكثير مــــن تنوعها وتشكيلاتها ..

إن الألوهة فى حس الضمير أكثر جلالا ووحدانية من تلـك التشكيلات التى أقامها الفكر، سيما عندما دخل الكهنة الميـدان،

وارتبطت مصالحهم المادية بالدين، ومن ثم فالضمير وهو يتابع سيره يعكس على الفكر رؤاه فنرى الرغبة تسير اتجاه التوحيد مبتدئة بالثالوث، منتهية إلى الوحدانية، وهناك نلتقى بهذه النصوص .

"كل الآلهة ثلاثة، آمون، ورع، وبتاح، ولاثانى لهم "

إن عبارة"ولاثانى لهم"تدل على أنهم يجعلون الثلاثة واحدا.

وفى النص التالى نجد هذا المعنى فى وضوح أكثر .

"هو الواحد: آمون، ورع، وبتاح ــ ثلاثتهم معا".

إن تنوع الظواهر وسلطانها، أتاح الفرصة يومئذ لتنوع الآلهة وتكثارها .

ولكن وحدة الكون. التى كان الضمير يحسها جيدا، ويدعوا الفكر إليها. كانت تلاشى شيئا فشيئا تأثير هذا التنوع على الفكر، وتدعوه إلى الوحدة .

وهكذا تركزت الألوهة فى ثلاثة ـ آمون، ورع، وبتاح، شريطة أن يكونوا معا إلها واحدا.. ولكن كيف يكون الثلاثة واحدا ..؟

إن كل شئ ممكن فى سبيل الوصول إلى "الواحد".

وهكذا يمضى النص فيقول :

"هو الواحد: آمون، ورع، وبتاح ـ ثلاثتهم معا"

"آمون هو الإله، ورأسه رع، وجسمه بتاح"

هنا نلتقى بسذاجة التعبير، والشكل الخارجى لفكرة تناهت من حيث جوهرها فى السمو والنبوغ .

وتجىء الخطوة التالية فى التوحيـــد الحاســـم حـــين يجـــئ "إخناتون".

إن"إخناتون" واحد من الأفراد الذين يختارهم الضمير أحيانا ليقوموا بعمل جيل أو أجيال .

فيومذاك، وقبل الميلاد بسبعين وثلاثمائة وألف عام يوجـــه إخناتون كل سلطانه كملك ضد التعدد الذى رآه شركا .

لقد واجه بأس الكهنة وضراوة التقاليد الدينية للشعب كلـه بعزم فذ .

وراح يهدم ويحطم جميع محاثم الأصنام، ويلغى بجرة قلـــم جميع طقوسها وشعائرها، معلنا أن"آتون" هـــو الإلــــه الواحــــد الأحد، وليس هناك إله آخر معه ولا إله آخر سواه .

ولكن ما هذا الإله آتون ..؟

إنه القوة اللانهائية .

إلى هذا وقضية التوحيد تمضى على أحسن مايرام .

لكن الفكر لم يخلص بعد من شوائبه، ولاتزال الشمس صاحبة أعظم سلطان على الأفئدة .

وإذن فلتكن هذه القوة اللانهائية حالة فى الشمس .

وليكن"آتون" إذن هو الاقتدار الهائل الكامن فى الشمس .

وبمعنى آخر. إذا كان لابد أن يكون للإله الواحد رمز فليكن رمزه الشمس .

ومهما يكن من أمر، فقد كان عمل "إخناتون" هذا الذى تم لحساب الضمير الإنسانى كله.. نقول كان وثبة فى تاريخ قضية الإيمان والتوحيد.. والآن، فلنتعرف إلى الإله الواحد"آتون" من خلال صفاته، كما نراها فى الابتهالات والآناشيد التى وضعت يومئذ لمناجاته ودعائه .

"أنت تبزغ بجمالك فى أفق السماء

"أنت ياآتون الحى الذى كنت فى أزلية الحياة

"فحينما كنت تطلع فى الأفق الشرقى كنت تملأ كل البلاد بجمالك .

"أنت جميل وعظيم ومتلألئ ومشرق فوق كل أرض

"وأشعتك تحيط بالأرضين حتى نهاية جميع مخلوقاتك .

. . . . . . . . . . . . .

"أنت خالق الجرثومة فى المرأة

"والذى برأ من البذرة بشرا

"وجاعل الولد يعيش فى بطن أمه

. . . . . . . . . . . . . .

"ما أكثر تعدد أعمالك

"إنـــها على الناس خافية

"يا أيها الإله الأحد

"الذى لايوجد إلى جانبه إله آخر

"لقد خلقت الأرض وفق مشيئتك

"وحينما كنت وحيدا، لاشئ معك

"خلقت الناس والماشية والغزلان

"وجميع ما على الأرض مما يمشى على رجليه

"وجميع ما فى أعلى ، مما يطير بأجنحته"

* * *

وهنا وقد تجلت الألوهة بكل سلطانها فى إله واحد أحـــد، يظل الإنسان آخذا مكانه فى دائرة الألوهة كذلك، فهو موضوع رعاية الإله.. بل هو"ابن" الإله، ففى الأنشودة نفسها نرى هــذه الابتهالات.

"إن جميع الناس سويت وجوههم

"لكى لاترى نفسك بعد وحيدا

"إن ابنك إخناتون يعرفك

"فقد جعلته عليما بمقاصدك وقوتك"

وفى تشبيه آخر يبتهل فيه إخناتون إلى الإله الأحد، فيقول:

"أنت تشرق بجمالك ياآتون الحى يارب الأبدية

"إنك ساطع وقوى وجميل

"وحبك عظيم وكبير

. . . . . . . . . . .

"كل ما خلقته يطرب أمامك

"ويفرح ابنك الجليل وقلبه فى حبور"

ولئن كانت صفة النبوة قد تكررت. مختصا أخناتون بـها نفسه. فإن ذلك لم يكن يعنى نفيها عما سواه" ففى نفس هـذا النشيد نلتقى بهذه الفقرة .

"إيه أيها الإله الذى سوى نفسه بنفسه خالق كـل أرض وبارئ من عليها "

. . . . . . . . . . .

"وأنت الأب والأم لكل من خلقه"

وبعد، فغدا يذهب"إخناتون" وتقتلع ثورة عارمـــة كـل توحيده ونظامه، وتعود الآلهة والمعابد والكهنة . ولكن كل ذلك لايجدى، فقد ظهرت قضية التوحيـــد فى الوجـــود الإنســانى كحقيقة ناجحة، ولقد رفع الضمير رايتها حيث لا تستطيع يــد أن تنالها، وستظل فى مكانها تذكر الغادين عبر الأجيال بالإلـــه الواحد الأحد، حتى يجيء عصر النبوات ومعه اليقين ..!!

وتدعم وحدة الكون نفسها فى حركة الفكر، ولا يكتفــى يومذاك بالوحدة المعنوية. بل تخلع عليها وحـــدة "بيولوجيـــة" فتقول الأسطورة فى مصر القديمة .

"كانت السماء مضطجعـــة علـــى الأرض، ثم انفصلــت عنها".. أى أن السماء والأرض كانتا كتلة واحدة .

أما كيف تم هذا الفصام .

فتقول الأسطورة :إن إله الهواء"شو" رفع السماء بذراعيــه القويتين، وبقى ناهضا كأعظم عملاق..قائمـــا بـــين الســماء والأرض.

وتتضح الوحدة البيولوجية أكثر فى رؤياهم أن كل شـــىء خلق من الماء، فالماء أصل الحياة وأصل الكون .

وهذه الوحدة الكونية تعكس آثارها على الإنسان بصـــورة

تدعم بـــها نفسها فى شعوره وتفكيره .

فقد اعتقدوا يومئذ أن كل فرد إنسانى مرتبط ارتباطا وثيقـا بحركة الفصول الأربعة وبحركات الكواكب والنجوم ..فى كـــل شئون حياته من مرض وعافية ورزق وحظوظ وموت ..!!

ووحدة الحياة كوحدة الكون .

فكل الكائنات الحية على الأرض أسرة كبيرة ؛ لأن الإلـــه خالقهم جميعا .

وإذا كانت العبادة هى أسمى أعمـــال الإنســـان وأرفـــع واجباته، فإنـــها يومذاك لم تكن شرفا للإنسان وحـــده.. بـــل وللحيوان أيضا.

فالأنشودة التى يبتهلون بـــها إلى الإله"رع" تقول :

"القردة تعبده ..

"والحيوانات كلها تقول بصوت واحد: الحمد لك" ..!!

* * *

والحق أن تركيز الضمير على وحدة الكون كان عظيمـــا وأكيدا .

لكأنه كان يحس أن كل مغانم المصير الإنســـانى مرتبطـــة بإدراك هذه الحقيقة والعمل وفقها.

وفى استجابة الفكر لإلحاحات الضمير هذه.. نراه يثـــابر على توسيع اقتناعه بـــهذه الوحدة وتنمية مفهومها، حتى يتـــاح له يومذاك أن يرد عناصر الكون كلها إلى جوهر واحد ويـــرى إمكانية أداء عنصر، وظيفة عنصر آخر..!!

ولندع كتاب"ماقبل الفلسفة" يحدثنا فيجلو لنا هذه النقطة.

"..وأول دليل على أن عناصر الكون من جوهر واحد هـــو مبدأ التبادل. فقد كان من السهل على العنصر الواحد أن يحـــل محل العنصر الآخر .

فالميت يريد خبزا لكى لايجوع فى العالم الآخر، فكان يقـــوم بسد حاجته هذه بضروب أخرى من الخبز. فيصنع من الخشـــب أرغفة، توضع معه فى قبره"

"وللآلهة عندهم أبدال آخرون، فإن ملك مصر، وهو أحـــد الآلهة، ذو طبيعة متحولة تجعل فى وسعه الاندماج مع أقرانه الآلهة حتى يصير واحدا منهم ..

"والمصريون فى هذا، لم يفرقوا بين الرمزية والمشاركة" "فإذا قالوا: إن الملك هو الإله حورس، لم يقصدوا بهذا أن الملك يلعب دور"حورس" بل يقصدون أن الملك هو"حورس" بـــالفعل.. وأن الإله حورس موجود فعلا فى جسد الملك طوال فـــترة النشـــاط

المعين الذى يتطلب حلول الإله ..!!"

* * *

ولقد كان الأمر كذلك فى بابل، وكانت تذهب فى وحدة عناصر الكون وردها إلى جوهر واحد، نفس مذهب الفكر المصرى، وتعبر عنه فى أشكال مماثلة.

وسنلتقى برؤيا الضمير الإنسانى عن الألوهة ، ووحدة الكون، والخلود بعد ذلك فى الهند والصين، وأثينا ، وفارس كل يعبر عنها وفق تجربته وتفكيره .

* * *

ترى ماذا كان الامتداد الطبيعى لرؤى الضمير ..؟

لقد تمثل هذا الامتداد فى رؤيا عن العلاقات التى يفرضها وجود هذه الحقائق .

فإذا كان ثمت إله، وخلود، ووحدة بين عناصر الكون وقواه: فما هو الأسلوب الذى يجمل بالإنسان أو يتحتم عليه أن يعامل به هذه الحقائق .

وهكذا نلتقى بالضمير، وهو يستشرف"العلاقات" التى سيفاعل بها الإنسان وجوده مع الإلوهة، ووحدة الكون، والخلود ـ أو بتعبير أصح؛ يستشرف "جوهر"هذه العلاقات .

نلتقى به وهو يثير القيم والأخلاقيات التى ستبث التماسك وإرادة الصعود فى الصفوف البشرية، وسيبلغ فى تقديسه لها الحد الذى نراه يخلع عليها أو على أمهاتها ألوهة وتقديسا يتبديان فى عمل الفكر حين يجعل العدالة إلها اسمه "ماعت"..

لقد تجلت الحياة عظيمة أمام الضمير الإنسانى ، فسأل نفسه: ما أغراض هذه الحياة ..؟

ثم مضى فى سعيه النبيل، وارتياده المستبسل يبحث فى طريق الحقيقة عن الجواب.

ولسنا نزعم أن أغراض الحياة جميعا قد استبانت للضمير مرة واحدة فى ذلك العهد السحيق .

وإنما استطاع يومذاك أن يدرك منها ما يكفى لأن يتصور الناس به جلال الحياة ويصوغوا مسعاهم وسلوكهم وفق هذا التصور وهذا الإدراك .

ولعل مبتكر الأمر كله تمثل لدى الضمير فى اكتشافه مسئوليات الإنسان وكيف يعيش "مواطنا صالحا" فى كون الله...

ذلك أن الضمير الإنسانى لم يتصور يوما أن فى هذا الكون الرحيب فراغا، أو أن فيه سلبية وبطالة .

فهو ممتلئ بالحركة العامرة بسر الألوهة.. وكل شئ فيه

يعمل، إذ له دور يتحتم عليه أداؤه .

وللإنسان كذلك دوره الكبير العارم فكيف يؤديه.؟

إذا كان هناك وحدة كونية تربط الكائنات جميعها بعضها ببعض. فإن هناك لاريب وحدة إنسانية تجعل الإنسان للإنسان صديقا وأخا.

وإذن فأول ما يتحتم توفره لتستطيع البشرية أداء دورها هو هذا الانسجام بين أفراد النوع كله.. تماما كذلك الانسجام القائم بين كل أشياء الكون ـ أرضه وسمائه .

إنه تقديس الرحم الإنسانى. القرابة الإنسانية التى تتيح للجنس البشرى أن يضع التعاضد مكان التخاذل ، والحب مكان الكراهية والإقناع مكان الخنجر ..

ولكن كيف تحيا هذه الرحم .؟

كيف يجد الإنسان أخاه بدل أن يفقده ..؟

كيف تهزم القرابة القطيعة ..؟

إن الضمير يعرف ـ ولسوف يجيب ..

وهو خلال بحثه عن الجواب سيكشف لنا العدل، والحب والصدق، والتضحية، والشجاعة، والأمانة، والحرية، والكرامة، وسواها من أخلاقيات التقدم الإنسانى وضروراته.

وسيتخذ من تقديس الأسرة دائما وسيلة لتدريـــب كـــل فضائل المحبة والصداقة.

فما دام الإنسان مفطورا على حب نفسه، وأبويه، وإخوتـه وأقربائه، فإن كل تنمية لقوة الحب داخل هذه الدائرة ـــ دائـــرة الأسرة والعائلة ـ تـــهئ للحب فيما بعد فرص الانتشار العظيم، حتى ينال الناس جميعا ..

وهو كلما تم له اكتشاف فضيلة تبناها وخلع عليها مــــن الحتمية والقداسة ما يزجر كل تفريط فيها أو عدوان عليها.

وإنه لينذر أفـــراد للنوع الإنسانى سلفـــا، بأنــــهم لـــن يستطيعوا أن يحترموا هذه الأخلاقيات فى العلــــن ويخونوهـــا فى السر.

ذلك أن فى كيان كل فرد وتركيبه ما يكشف خبأه ويعلـن طويته سيما أمام الله الذى يسمع كل شىء ويراه .

ومع كل فرد ـ كما سيصور الفكر ـ قرين، يسمى ال"كا" يحصى أعماله، ويسمع هواجس نفسه، ويبصر خائنـــة عينـــه.. وكل إنسان مسئول أمام الله؛ وأمام ال"كا".. هذه الروح الحالـة فيه أو اللاصقة به .

وفى تلك البدايات المبكرة والقوية أيضا، نجد الضمير يركـز

على العدل وتكافؤ الفرص تركيزا كبيرا .

فحين نطالع حركة الفكر القديم، والفكر الأشورى والبابلى، نجد الكلمات كلها صداحة بالعدل، لاسيما فى مصر حتى لكأنما تراءى لهم العدل يومئذ، وكأنه دون سواه أو على الأقل قبل سواه، القانون الذى تقوم به السماء والأرض.

وإن كل شعيرة وقربان ليفقدان مع الظلم قيمتهما .

يقول الفكر المصرى القديم :

"إن فضيلة الرجل المستقيم ، أحب إلى الله من ثور الرجل الظالم ـ يعنى قربانه ـ"

* * *

"إن العدالة خالدة الذكرى، فهى تنزل مع من يقيمها إلى القبر، ولكن اسمه لايمحى من الأرض"

ونبضات الضمير يترجمها الفكر فى آيات مشرقات تلتقى بها فى تعاليم أمنموبى، وبتاح حتب، وكاجمنى، وغيرهم من حكماء مصر الأقدمين.

"احذر أن تسلب فقيرا بائسا

"وأن تكون شجاعا أمام رجل مهيض

"ولاتجعلن نفسك رسولا فى مهمة ضارة"

"لاتزحزحن الحد الفاصل بين الحقول

"ولا تطمعن فى ذراع أرض

"احذر رب العالمين

"ولا تعتدين على حرث آخر

"إن المكيال ـ الواحد ـ الذى يعطيكه الله، خير من خمســة آلاف تكسبـــها بالبغى

"وأرغفة تكسبـــها بقلب فرح

"خير لك من ثروة مع شقاء"

* * *

والعدالة الاجتماعية التى تجعل الناس سواء فيما رزقـــهم الله من فضله، هى الشغل الشاغل يومذاك للضمير والفكـــــر وإنـــا لنعجب ! كيف، وقبل الميلاد بحوالى أربعة آلاف عام كانت هذه الإشعاعات تملأ الحياة فى إلحاحها العظيم هذا..!! وكيف كـــان الضمير والفكر يتتبعان دقائق السلوك الإنسانى الـــتى يمكـــن أن تنحرف بالناس عن طريق العدل الاجتماعى وتبعاته ..

لننظر ..

ـ"إذا أصبحت عظيما، بعد أن كنت صغـــير المكانـــة .. وصاحب ثروة، بعد أن كنت محتاجا..؛ فلا تنسين كيف كـــنت

حالك فى الزمن الماضى، ولاتبغين بثروتك التى أتتك منحة من الإله، فإنك لست بأحسن من أقرانك الذين حل بهم الفقر" .

"احذر الشراهة، فإنها مرض عضال، والصداقة معها مستحيلة".

* * *

"لاتأكل الخبز أمام من لايجده،دون أن تمد إليه يدك بالخبز"

* * *

لاتصنعن لنفسك معبرا على النهر ثم تجاهد بعد ذلك لتجمع أجره "

"خذ الأجر من الرجل صاحب الثروة .."

"ورحب بمن لايملك شيئا"

* * *

لقد ذاعت هذه التعاليم فى عصرنا المديد، وكان لها من الاحترام ما جعلها إرادة الضمير حقا، وما جعل لها يومذاك بين أهلها وذويها حرمة القانون ونفاذه .

* * *

ويرتبط العدل بالحكومة ارتباطا يجعل مصير الاثنين واحدا فى تلك التعاليم ..

"إن كنت زعيما فى يدك تصريف الأمور، فـــاغتنم كـــل فرصة كريمة لتجعل تصرفك خاليا من كل خطأ، فالعدالة لهـــا فائدتها، ومنفعتها باقية، ولم يعبث بــها أحد منذ زمان صانعها، بينما القصاص فى انتظار كل من لايأخذ بقوانينها"

* * *

ومنذ عهد "أمنمحات الأول" يوضع تقليد يفرض على كل من يتولى الوزارة أن يحفظ هذه الوصية ويقسم على احترامها ــ وهذه بعض فقراتها .

"اعلم أن الوزارة لاتعنى إظهار الاحترام لأشخاص الأمـــراء والمستشارين"

"وليس الغرض منها أن يتخذ الوزير لنفسه عبيـــــدا مـــن الشعب".

"واعلم أنه عندما يأتى إليك شاك من الوجه القبلى أو مـــن الوجه البحرى أو من أى بقعة فى البلاد، فعليك أن تطمئـــن إلى أن كل شىء يجرى وفق القانون وأن كل شىء قد تم حســـب العرف الجارى، فتعطى كل ذى حق حقه ..

"عامل من تعرفه، معاملتك من لاتعرفه"

* * *

ولقد سرت العدالة فى شرايين الحكم حتى لم يكن لحـــاكم أو موظف كبير ما يفخر به مثل أن يكون عادلا .

وتحفظ لنا الآثار نقوشا باقية على مقبرة"أمينى" أحد الأمراء المصرين حوالى"٢٠٠٠" قبل الميلاد، يتحدث عن نفسه ومناقبـه فيقول :

"لا توجد بنت مواطن قد عبثت بـــها

"ولا أرملة عذبـــتها .

"ولا فلاح طردته

"ولاراع أقصيته

"ولا يوجد بائس بين عشيرتى

"ولا جائع فى زمنى

"وعندما كانت تحل بالبلاد سنون مجدبة، كنت أحـــرث كل حقول المقاطعة، محافظا على حياة أهلها، ومقدمـــا لهـم الطعام حتى لايبقى فيهم جائع"

"وقد أعطيت الأرملة قبل ذات البعل

"و لم ـ أميز ـ الرجل العظيم، فوق الرجل الفقـــير، فى أى شئ أعطيت "

"وحتى حين أقبل الفيضان العظيم بالغلال والخيرات لم أجمع

المتأخر من الضرائب" ..!!

كم لهذه الكلمات من مذاق حلو، وروعة آخذة.. لكـــأن الضمير الإنسانى هو الذى يتحدث إلينا ويروى طرفا من أنبائه.

ويرسل "كاجمنى" إحدى صيحات الضمير:

ـ"أقم العدل لتوطد مكانك فوق الأرض"

"وواس الحزين، ولا تعذبن الأرملة".

ثم يعبر عن قانون القصاص تعبيرا تناهى فى الروعة والفطنـة فيقول :

"إن الروح تذهب إلى المكان الذى تعرفه ".

"ولا تحيد فى مسيرها عن طريق أمسها" ..

أجل .

إن الروح لاتحيد فى مسيرها عن طريق أمسها، فهى تمشـــى فى ضياء عملها الطيب أو فى ظلمة عملها الخبيث .

وهى لن تجد غدا، إلاماقدمت اليوم.. ومصير كل إنســـان ليس سوى الحلقة الأخيرة فى سلسة أعماله ومساعيه وحياتـــه ـ فمن قدم المعدلة، وجد النجاة، ومن يـــزرع الريـــح، يحصـد العاصفة..

* * *

والمساواة بين الناس فى حقوق الحياة تمثل من ذلك اليوم البعيد الوجه الآخر للعدل .

ولقد أدرك الضمير منذ البدء أن لجميع الناس حقوقا متكافئة وأن كل تفاوت وتمايز تنشئهما المواضعات الباطلة لحياتهم وغرورهم، فليسا سوى تحد لمشيئة خالقهم سبحانه .

ومن ثم كانت مصر كلها تردد أيام المملكة القديمة، والمملكة الوسطى هذه الكلمات وهى على لسان الإله.

ـ"لقد صنعت الرياح الأربع؛ لكى يتنفس . منها كل إنسان كزميله إبان حياته ..

"لقد صنعت مياه الفيضان العظيمة؛ لكى يكون للفقير فيها حق كالعظيم "..

لقد صنعت كل إنسان مثل غيره من الناس".

* * *

ومن العدل يفجر الضمير كل فضائل الحياة؛ فالاستقامة والتواضع والصدق، والبر، والمحبة، والثقة بالنفس وبالغير، والشجاعة، والأمانة ..

كل هذه الأخلاقيات، سيمضى الضمير فى الإيعاز بها والحض عليها،باعتبارها أركان كل حياة عادلة .

ـ"إن الصدق جميل، وقيمته خالدة ..

"وقد تذهب المصائب بالثروة، لكن الصدق لايذهب بـــل يمكث ويبقى"

* * *

"لاتتكلمن مع إنسان كذبا؛ فذلك ما يمقته الله، ولا تفصلن قلبك عن لسانك حتى تكون كل طرقك ناجحة"

ـ"ول ظهرك لتلك الكلمات الكثيرة التى ينبو عنها السمع، فإن العصا المعوجة الملقاة فى الحقل يجعل منها الصـــانع ســـوطا للحاكم،أما قطعة الخشب المستقيمة، فيصنع منها لوحا للكتابة".

* * *

ـ .." ومن فعل فاحشة فإن المرفأ يفلت منه، وأرضنا المبللـة تحمله بعيدا"

* * *

ـ "لاتفرحن من أجل ثروة أتت عن طريق السرقة"

* * *

ـ "كن ثابتا أمام غيرك من الناس؛ لأن الإنسان فى مأمن بين يدى الله"..

"وإن الممقوق من الله هو من يزور فى كلامه، لأن أكـــبر

شىء يكرهه الله هو النفاق"

* * *

ـ "لاترقد فى الليل متخوفا من الغد"..

"إذ لايعلم الإنسان ما سيكون عليه الغد..

"فالله دائما فى تدبيره..

"والإنسان فى ظنونه..

"كن حازما فى قلبك وثابتا فى عقلك"

* * *

ـ "لاتسخرن من أعمى، ولا تهزأن من قزم"..!!

* * *

ـ "لاتلعن أكبر منك سنا؛ لأنه شاهد الله قبلك"

* * *

ـ "لاتتكلن على مال إنسان آخر؛ ولا تقولن إن والد أمى له بيت. لأنه إذا جاءت القسمة مع إخواتك فإن نصيبك لن يكون إلا محزنا..!!

* * *

ـ "قدم قربانا لإلهك، ولا تتخط حدوده، ولا تسأل عن صورته، ولا تمش الخيلاء فى موكبه، واحترم اسمه؛ لأنه هو الذى

يعطى القوة جميع المخلوقات"

* * *

ـ"ضاعف مقدار الخبز الذى تعطيه أمك..

"واحملها كما حملتك ..

"لقد كان عبؤها ثقيلا فى حملك .

"وبعد أن ولدتك، حملتك مرة أخرى حول عنقها.

"وقد أعطتك ثديها ثلاث سنوات، ولم تشمئز من فضلاتك ولم تتبرم، ولم تقل: ماذا أفعل أنا..

"ولقد ألحقتك بالمدرسة عندما تعلمت الكتابة..

"وكانت تقف كل يوم هناك خارج المدرسة تنتظرك بالخبز والجعة ..

"فحينما تصبح شابا، وتتخذ لنفسك زوجة، وتستقر فى بيتك، اجعل نصب عينيك كيف وضعتك أمك وكيف ربتك بكل الوسائل.. فلا تجعلها تشكوك إلى الله وترفع إليه عويلها منك"..

* * *

هذه بعض سمات النموذج ومعالمه.. النموذج الذى كان الضمير ينشئه ليصوغ وفقه"الإنسان العادل" و"المواطن الصالح"

فى كون الله .

وبهذه المحاولة كان الضمير يكتشف عالم القيم، ويضمخ الحياة الإنسانية بأخلاقياتها التى تجعل لها عبيرا وبهجة، وسنخطو الآن مع الضمير الإنسانى خطوة أخرى إلى الأمام لنبصر نفس محاولته فى بقاع أخرى من أرض الناس، ونماذج أخرى بين صفوف البشر .

* * *

نحن الآن فى الهند.. الهند القديمة قبل الميلاد بألف عام وإن شئتم المزيد فألفى عام ..

وهذا الرنين العذب الآتى من بعيد، إنما هو صدى اللحن الباهر الذى يعزفه الضمير فى تلك البلاد الحافلة. إن ثمت مملكة عظمى للضمير.. الحكماء، والعباد، والزاهدون، المتبتلون للحقيقة والخير ـ يقلبون وجوههم فى السماء وفى كل شىء باحثين عن الحق .

والضمير هناك يتابع رحلته ومسيره .

والألوهة، والخلود، ووحدة الكون، ومملكة الإنسان ـــ هى شغله الشاغل.

ما الله ، يومذاك فى الهند ..؟

ـ"الله كائن فى الأشياء كلها

"إنـــها صوره الكثيره

"وليس يعبد الله إلا من يخدم سائر الكائنات جميعا"

* * *

ما أروع هذا ..!!

إن الضمير ليكشف للألوهة أبعادا جديدة.. فإنـــها بـــهذا المعنى ليست شيئا مجردا، ولا معزولا عـــن العـــالم فى صومعـــة مقدسة.. إن الله بقدرته وأسراره فى الأشياء جميعا ..

والعبادة، لم تعد إذن مجرد قرابـــين ذبيحـــة تقـــدم لله فى الهياكل.. بل إنـــها فى حقيقتها ـ خدمة شاملة للكائنات كلها.

ولكن ما الله أيضا..؟

نريد مزيدا من المعرفة به ..

وهنا يتحدث الضمير من خلال سفر"رج" أحـــد أســـفار "الفيدا" فلنصغ إليه .

ـ" لم يكن فى الوجود موجود ولا عدم

"فتلك السماء الوضاءة لم تكن هناك.. وكـــانت بـــردة السماء منشورة فى الأعالى .

فماذا كان الغطاء إذن..؟ ماذا كان الموئل..؟ ماذا كـــان

المخبأ..؟

"أكانت هى المياه بـــهويها الذى ليس له قرار .؟

"ولم يكن ثمت موت، ومع هذا لم يكن هناك ما يوصـــف بالخلود ..

"ولم يكن فاصل بين النهار والليل .

"والواحد الأحد لم يكن هناك سواه

"ولم يوجد سواه منذ ذلك الحين حتى اليوم

"كانت هناك ظلمة

"وفى البدء كان كل شئ تحت ستار

"من ظلام عميق محيط بغير ضياء

"والجرثومة التى لم تزل كامنة فى اللحاء، وبرزت طبيعـــة واحدة من الحر الحرور .

"ثم أضيف إلى الطبيعة الحب ..

"وهو الينبوع الجديد للعقل .."

وتمضى هذه الحكمة اليانعة متسائلة، وفاحصة،حتى تقول:

"من ذا يعلم السر الدفين..؟

"من ذا أعلنه هنا ..؟

"من أين..؟ من أين جاءت هذه الكائنات ..؟"

ثم يشير إلى الآلهة الكثيرة التى اتخذها الناس عبر الأجيـــال والأزمان رمزا للألوهة ، وللقوة الجليلة التى تبعث الحياة فى كــل حى، فيقول عن هذه الآلهة الرمزية :

"إن الآلهة نفسها، جاءت متأخرة فى مراحل الوجود.

"فمن ذا يعلم، كيف جاء هذا الوجود ..؟؟

ثم يعلو رنين الحكمة،ويتصدر الضمير العليم موكبها فيعلن:

"إن من صدر عنه هذا الخلق العظيم .

"سواء خلقه بإرادته أم صدر عنه وهو ساكن

"لهو ربنا الأعلى فى السماوات العلى" ..

* * *

هذا نمو واضح فى إدراك الألوهة.. ترى نمو الضمير هـذا؟ أم نمو الفكر الذى يعبر عن الضمير؟ أم نـــموهما معا ؟

إن الفوارق تستبين الآن بين الآلهة، والألوهة.. وبين الإلـــه والله ..

فإذا كان الناس من قبل قد اتخذوا لأنفسهم آلهة، فكــــان لكل بلد إله، وأحيانا لكل عائلة إله ـــ مقدسين بــــهذا الألوهـــة نفسها كقوة وحقيقـــة.. فقـــد آن لهـــم أن يعلمـــوا أن "الله" هو"جماع" هذه الحقيقة، وأن "الله" الذى صدر عنه كل مخلـــوق

وكائن، هو الرب الأعلى، وأن "الله" بقدرته وعلمه محيط بكل شئ ..

وسيعبر الفكر عن هذا فى تنوع ورمزية تقوده كعادته نزعة الافتراض والمبالغة، وهنا نلتقى به يسمى الله "أتمان"، ويرى فى"أتمان" روح العالم.. وهو منبث فى كل شئ.. وفينا نحن بنى الإنسان بصورة خاصة .

فأنت إله.. أنت "أتمان" بقدر ما تحرز من تفوق وصفاء والآن فلننظر.. إن تلميذا هنديا يتقدم من معلمه ويسأله عن جوهر الكائنات: أين هو .؟

ويدور هذا الحوار :

المعلم : هات لى تينة من ذلك التين ياولدى .

التلميذ: هذه هى يامولاى .

ـ اقسمها نصفين.

ـ قد قسمتها يامولاى .

ـ ماذا ترى فيها ..؟

ـ أرى حبيبات دقاق يامولاى .

ـ تفضل واقسم حبيبة منها نصفين ياولدى .

ـ قد فعلت يامولاى .

ـ ماذا ترى هناك ..؟

لست أرى شيئا على الإطلاق يامولاى .

وهنا يجيبه المعلم :

حقا ياولدى العزيز، من هذا الجوهر الذى لاتستطيع رؤيته، نبتت شجرة التين العظيمة .

"وإن روح العالم ـ ياولدى ـ لهو الجوهر الذى ليس فى دقته جوهر سواه .

"إنه الحق.. إنه"أتمان".. إنه أنت ياولدى العزيز".!

* * *

وسوف يفسح الضمير مجالا لمن يشك ويتساءل، فالشـــك أحد وسائل كشفه ويقينه .

وإنه إذ يسمع قولهم، ليجيبهم على لسان "براهما".

"إنهم ليخطئون الحساب، من يخرجوننى من الحساب"..

إن الضمير الإنسانى فى جولته هذه، فى الهند القديمـــة قـــد أعطى البشرية جرعة شباب طويلة ومباركة .

وفى حكمة لا تغيض عذوبتها غنـــى للإخـــاء، والحـــب، والرحمة أعذب ألحانه .

وها هو ذا يتألق تألقه الباهر الودود فى شخص"بوذا".

فحين يرى الضمير كثيرا من الكهنة يتخذون الدين والعبادة سبيلا لإشاعة الكآبة فى الحياة، ولجعل تكاليفها الفاضلة أعباء قاسية تنوء بحملها الأفئدة، يلقى يومئذ فى روع واحد من الأبرار كلمته الجديدة التى يحيى بها روح الإنسان .

هنالك ينهض "بوذا" مزودا بخبرة عظيمة عن بؤس الإنسان، ومهيأ بطاقات ريانة ستضع نفسها فى خدمة كل ما هو إنسانى وخير .

ولسوف يبدأ فى تعبيره عن مشيئة الضمير الإنسانى، بالنهى عن الفتك بالحياة .

ترى كيف يكون سبيله لهذا، ومنهاجه .؟

إنه ذلك السهل الممتنع .. الحب..!!

فالحب والصفح الجميل ضرورة الحياة لكى تدوم الحياة ..

ألا فليشد "بوذا" بتعاليمه الخالدة .

أو بتعبير أصح، ليشد الضمير من خلال بوذا .

ـ"إذا أساء إلى إنسان عن حمق؛ فإن سبيلى لوقاية نفسى من إساءته، هو أن أحبه حبا خالصا ..

"ولئن زادنى إساءة ، لأزيدنه خيرا .."

* * *

هذه مشيئة الضمير إذن، الارتفاع بالعلاقات الإنسانية فوق مستوى الكراهية والثأر..وتحريرها من سيطرة الشر عليها.

ولسوف يكون بوذا يومئذ خير ممثل للضمير؛ لا فى الدعـوة إلى هذه الحقيقة فحسب. بل وفى السير بسلوكه وفقها.

فذات يوم يأتيه أحد أولئك الذين يمارســون السـفاهة فى شره كبير، ويتطاول على "بوذا" ويمعن فى الإساءة إليه .

فيسأله بوذا :

ـ"أخبرنى يابنى..

"إذا رفض إنسان أن يتقبل منحة قدمت إليه.. فلمن تــرد هذه المنحة ..؟

ويجيب الرجل:"إنها ترد إلى صاحبــها ..

وهنا يقول "بوذا" :

ـ"إنى إذن يابنى أرفض قبول إهانتك، وألتمــس منــك أن تحتفظ بـــها لنفسك.

ويسعى الضمير لتحرير العبادة من كل ما ينهش روحـــها ويحرمها السمو الخليق بـــها.. وينشئ لكل إنسان معبـــده فى ضميره وقلبه .

وها هو ذا"بوذا" يقول لبرهمى جاء يستأذنه فى الســـفر إلى

"جايا" ليستحم فى مائها .

ـ"ولماذا السفر إلى"جايا" أيها البرهمى ..؟

"كن رحيما بالكائنات جميعا ..

"ولا تنطق كذبا ..

"ولا تقتل روحا .

"ولا تأخذ مالم يعط لك ..

"وعش آمنا فى حدود إنكار ذاتك ..

"وساعتئذ ، لن تكون بحاجة إلى السفر إلى"جايا"

"إن كل ماء يكون عندئذ"جايا" ..!!"

* * *

• ـ والمساواة حقيقة لايأتيها ريب، ولن يكون ثمت حب، ولا إخاء، ولادين ما بقى الناس سادة وعبيدا..

ـ"انتشروا فى كل الأرض ..

"وبشروا بهذه التعاليم ...

"قولوا للناس: إن الفقراء، والمساكين، والأغنياء والصفـوة ـ كلهم سواء ".

هكذا قال بوذا لتلامذته .

• ـ وحرية الضمير، التى تجعل الناس مبدعين لامقلديـــن..

وأشخاصا حية لاظلالا ولا دمى، تجد يومذاك فى بوذا محاميــها القدير .

فعلى كل فرد من الناس أن يهيىء نفسه ليمتلك مقـــادير حياته وأزمة مصيره .

وبم يهيىء نفسه ..؟ بالمعرفة ..

ـ "إن كل من صار لنفسه مصباحا يهدى ، وملاذا يؤوى، فلن يلتمس لنفسه من غير نفسه مأوى .

"وسيستمسك بالحق مصباحا، فلا يطلب من غير نفســـه ملاذا .

"أمثال هؤلاء. هم الذين يبلغون الذرى العالية ..

"شريطة أن يكون لهم بالمعرفة شغف عظيم .."

* * *

إن تحرير الضمير الفردى من التبعية العمياء المتقامئة وتحريره من الكراهية والضغن، لهو اللحن المجيد الذى يغنيــــه الضمـــير الإنسانى فى تلك الحقبة وتلك البقاع .

ولقد غناه من قبل على نحو سريع فى مصر القديمة، وبابل أما اليوم فإنه يفرد له وقته ومعارفه ".

فبينما كان فى الهند يحمل عصا المايســـترو أمـــام بـــوذا،

وحكماء الهند الكثيرين، لينشدوا ويغنوا لحرية الضمير، والإخاء والمحبة ... كان كذلك يفعل، فى الصين القديمة مع "كونفشيوس"،و"لودزه" وغيرهما من حكماء الصين .

وكانت آفاق الصين تردد هذه الآيات :

"إذا لم يقاتل الناس فإن أحدا على ظهر الأرض لن يستطيع أن يقاتلك ..

"أنا خير للأخيار، وخير لغير الأخيار؛ وبهذا يصير الناس كلهم أخيارا ..

"أنا مخلص للمخلصين، ومخلص لغير المخلصين، وبهذا أجعل الناس كلهم مخلصين" .

هذا هو الحب العميق للناس جميعا محسنهم ومسيئهم.

وهذا هو البلسم الذى يشفى القلوب من الكراهية والحقد.

ولكى يصبح الحب على هذا النحو واقعا إنسانيا، وليس مجرد أمنية طيف، فإنه ينبغى أن يكون هناك تواص بالحق والمعروف .

ويوضح الفيلسوف الصينى "مودى" مشيئة الضمير فى كلماته هذه .

ـ"يحب الناس كلهم بعضهم بعضا.

"فلا يفترس أقوياؤهم ضعفاءهم.

"ولا يزدرى أغنياؤهم فقراءهم.

"ولا يسفه كبراؤهم صغارهم.

"ولا يخدع الماكرون منهم السذج".

وفى الشئون الدولية ترجم الضمير الإنســـانى الحـــب إلى مبدأين أساسيين :

أولهما ـ نبذ الأنانية وشهوة الفتح .

ثانيهما ـ نـــزع السلاح من كل العالم .

ولقد كان الفيلسوف الصينى"مودى" وتلميذاه"سونج بنج" و"جونج سون لنج" أصحاب دعوة هائلة فى عصرهما لنـــــزع السلاح مما جعل الإمبراطورية الصينية تكافح فى عنف دعوتهـــم، وتحرق آخر الأمر مؤلفاتـــهم .

ولكن على الرغم من ذلك، فإن الضمير الإنسانى قد رفـــع فى ذلك الحين البعيد راية جديدة اسمها "نـــزع السلاح" وستظل تخفق عبر القرون.. تنادى الناس وتذكر الأجيال بالمرفأ الوحيـــد لحياقم.

أجل.. فقبل الميلاد بثلاثمائة عام، أى منذ أكثر من ألفـــى عام جمع الضمير الإنسانى كل خبراته عن الإخاء العالمى وصاغها

فى هاتين الكلمتين ـ نــزع السلاح ـ ولسوف نرى مثابرته على تحقيق هذا المبدأ منذ الأمس البعيد حتى يومنا الماثل.

* * *

وللاعتداد بالذات، وتحرير الضمير الفردى من الرضـــوخ نصيب كبيرفى المحاولة الدائبة :

ـ"إذا لم يستطع المرء أن يقول: هذا رأيى فإنى لاأسـتطيع أن أسدى إليه نفعا..

هكذا كان يقول"كونفشيوس" ثم يستطرد قائلا:

ـ"وإنى لاأفتح باب الحق لمن لايحرص على معرفته، ولاأقدم العون لهذا الذى يعجز عن الإفصاح عما فى نفسه"

وفى هذا الفكر الثاقب الذى يعبر عن الضمير الإنسانى تعبيرا سديدا يبلغ الإصرار على حرية الضمير مداه .

وحرية الضمير تتطلب المعرفة المستمرة، فالذى يشغله مـلء بطنه بالطعام عن ملء عقله بالمعرفة، ليس إنسانا وإنما هو"وباء"

كما أن حرية الضمير تعنى الأمانة فى التفكير، والإخـــلاص فى نشدان الحق.

ومالم تتوفر هذه الضرورة الإنسانية، فإن الفساد ـ كمـــا يرى كونفشيوس يأخذ بخناق العالم كله.

واستمعوا له؛ وهو يقول منذ أكثر من ألفى عام:

"إن العالم فى حرب وفوضى؛ لأن الدول التى تحكمه فاسدة الحكم ..

"وهى فاسدة الحكم؛ لأن نظام الأسرة فاسد..

والأسرة فاسدة ؛ لأن الفرد مضمحل .

"وهو كذلك، لأنه عبد أطماعه وهواه ..

"وهو عبد أطماعه وهواه؛ لأنه لايعرف الحقيقة..

"وهولايعرف الحقيقة، لأنه غير مخلص فى تفكيره.

"فالأمانة فى التفكير، والإخلاص فى نشدان الحق هما بدايـــة الطريق"..

قد يبدو فى هذا التسلسل، أو هذا السلم المنطقـــى الـــذى صاغه"كنفشيوس"شئ من التكلف. بيد أن النتيجة النهائية الـــتى جعلها بداية الطريق، والتى هى نشدان الحقيقة فى أمانة وإخلاص لامبالغة فيها.

* * *

وفى الصين كذلك أيامئذ، تستقر عقيدة الألوهيـــة علـــى الحق، أو على ما هو أقرب إلى الحق منه إلى الأسطورة، فبعـــد أن كان الإله الأكبر للخليقة هى السماء، يعبدها الناس؛ ويقدمـــون

لها القرابين ـ أصبح الإله هو "الشانج تى"، أى القـــوة العليـــا المسيطرة بعلمها وقدرتها على العالم كله .

لقد حقق الضمير الإنسانى هنا على الوثنية نفس الانتصـــار الذى حققه فى بقاع أخرى.

بيد أن انتصاره هذا سيظل شديد الحاجة إلى دعم كبير لـــن تواتيه فرصته إلا فى النبوات .

وكانت "وحدة الكون" رؤيا تلك العصـــــور فى الصـــين فالسماء والأرض والبشر ـ كل أولئك يسيرون وفق قانون واحد وقواعد واحدة .

كما كان"الخلود" رؤيا واضحة لديهم، حتى لقد اختـــــار تفكيرهم يومئذ ـ عبادة الأسلاف ـ وتقديم قرابين يومية للموتى، باعتبارهم أحياء خالدين. بل ويمكلون لذويهم من الأحياء نفعـــا وضرا.

* * *

فى تلك العصور الخوالى، كان الضمير يغمـــــر بإشـــعاعاته وإلحاحاته بلدا آخر اسمه"أثينا"

وعن طريق الفلسفة الحرة بث الضمير الإنسانى رؤاه .

وهناك نلتقى به معنيا بتحويل الصداقة البشرية للكـــون إلى

نظرية عملية تهدف إلى كشف قوانين هذه الصداقة والزمالة.

إن عصر الإنسان يوشك أن يقبل، وعلى الإنسان أن يتـهيأ لا ستقباله.

عليه أن يدفن آخر مخاوفه من المجهول ، وذلك بمزيد مـــن التعرف إليه .

وهكذا تبدأ المعرفة بمعناها العلمى، فتأخذ مكانها الســـامق بين القيم الإنسانية .

وسيكون شعاره فى هذا الشوط: اعرف ..

- اعرف الكون الذى تعيش فيه ..

- اعرف نفسك ..

- اعرف كيف تعرف ..

- أجل.. إن المعرفة ليست من مملكة العقل، بقدر ماهى من مملكة الضمير .

فإذا ما استنفر الحدس الإنسانى قواه فى أثينـــا يومـــذاك، فاكتشف"أنكساجوراس" أن الشمس كرة ملتهبة أكـــبر مـــن اسبرطة، وأن القمر كرة من تراب.. لايضئ وإنما تنعكس عليــه أضواء الشمس.. وأن كسوف الشمس يحدث بوقوع القمـــر فى دورانه بينها وبين الأرض، كما أن خسوف القمر يحدث حـــين

تقع الأرض فى دورانـــها بينه وبين الشمس ..

وإذا جاء "طاليس" ليقول: إن النبات والحيـــوان يغتذيـــان بالرطوبة، ومبدأ الرطوبة الماء.. وما يتغذى به الشئ فمنه يتكون، إذن فمبدأ الحياة الماء .

وإذا جاء "هرقليطس" ليعلن أن"التغير هو صراع الأضـــداد ليأخذ بعضها مكان بعض إذ الشقاق أبو الأشـــياء كلـــها"أى واضعا بذلك مبدأ"الديالكتيك" الذى ستبنى عليه فيما بعد فلسفة هيجل ، وماركس.

وإذا جاء"ديقريطس" و"أبيقور"و"ألفيبوس" ليحدسوا بـــأن الكون يتألف من ذرات تناهت فى الدقة والقوة معا .

إذا حدث كل هذا يومئذ، فليس ذلك من سمات الذكـــاء الإنسانى بقدر ماهو أولا وآخرا من سمات القيم والفضائل .

فالضمير الإنسانى الذى غايته إنشاء المدينة الفاضلة للإنسان فوق هذه الأرض، يحس ويعى أن نجاح محاولاته يتوقف علـــى معرفة الإنسان لأسرار الطبيعة والكون، وتطويع قوى الطبيعـــة لحاجاته.

وحين تتحول المعرفة العلمية إلى حضارة تنـــهض بـــها وعليها كل مجالات الحياة، فإن الكفاح الأخلاقى للضمير يـــزداد

بهذا قربا من فوزه وأهدافه.

لقد وعى الضمير منذ فجـــره وصباحـــه، أن الانطـــلاق الروحى للبشرية توأم لتقدمها المادى، وأن كلا منهما يأخذ مـــن أخيه ويصب فيه، وأن أى تنافر سلبى يغشى علاقاتهما، فسيكون مرده ومأتاه قصوره فى وسائل الإنسان نفسه .

فحفاوة الضمير بالمعرفة فى كل أنواعها، حفاوة بـــالمعراج الأخلاقى نفسه الذى يشيده الضمير للإنسان.

من أجل هذا كانت المعرفة كقيمة تتجلى فى إلحاحاته منـــذ البدء. وإن كانت ستبلغ فى عقول فلاسفة أثينا والهنـــد المـــدى الذى يجعل منها"موصلا جيدا" بين التراث الإنسانى الحافل، وبين عصر العقل الذى سنلتقى به بعد حين .

ونقول: فلاسفة الهند، لأن الهند القديمة شهدت من ذلـــك الطراز أروعه .

فقد كان هناك "كانادا" الذى نـــادى بأن"العـــالم ملـــىء بالأشياء التى ليست سوى تركيبات مختلفة من الذرات تشـــكلت فى أشكال مختلفة".

بل ويذهب إلى أبعد من هذا فيعلن:"أن أشكال المادة يمكـــن أن تتحول وتتغير، أما الذرات ذاتها فباقية لافناء لها".

وكان هناك "شانكارا" الذى سبق الفيلسوف الفرنسى "كانت" بألف عام ـ وكان ـ كما يرى ديورانت ـ الممهد الحقيقى لفلسفته .

* * *

ونعود إلى أثينا حيث يتابع الضمير دعم المعرفة كقيمة من قيم الحياة العليا.

والآن، فالإنسان مدعو لأن يحرر المعرفة نفسها من كل ما ينحرف بها عن الحقيقة.. أى يعرف كيف يعرف .

ومدعو لأن يحرر نفسه من كل ما يشيع الشك فى قدرتها على التفوق وصنع المصير ـ أى يعرف نفسه، وسيختار الضمير الإنسانى لهذا الغرض لسانه المعبر، وابنه البار"سقراط"..

هذا الذى سأل أباه فى صباه عن سر المهارة التى يحرك بها "أزميله" فى الحجر الصلد، فينحت منه أسدا كأنه حى يتفجر حياة، فأجابه أبوه :

ـ"إنى أرى الأسد كامنا فى الحجر، أشعر كما لو كان رابضا هناك تحت سطحه، وما أفعل إلا أن أطلق بحركة الأزميل سراحه"..

والذى سأل أمه وكانت"قابلة" عن سر مهارتها فى إيلاد

النساء فأجابته:

"إنى فى الحق لاأصنع شيئا سوى أنى أساعد الطفل الرابــض فى الرحم على الانطلاق" .

إن الفتى الذى استوعب هاتين الإجــابتين وحـــرك همـــا استعداده العظيم، لخير من يستطيع أن يعلى صرح المعرفة علـــى أساس وطيد من حرية الضمير.. وسيمضى على نهـــج أبويـــه مكرسا حياته لمساعدة الأفكـــار والحقـــائق والفضـــائل علـــى الانطلاق.

والحق أن هذا الرجل بشعاره هذا "اعرف نفسك" سيكون المؤذن الصادح لعصر العقل والإنسان.. هـــذا العصـــر الـــذى سيجىء بعد ذلك بمئات الأعوام، والذى سيكون ثمرة حشد مـــن الأفذاذ والرواد؛ ومع هذا سيظل مدينا لسقراط بالشىء الكثير.

إن الضمير الإنسانى يريد من الناس أن يقدســـوا الحقيقـــة ويجعلوا البحث عنها كالعبادة .

ولقد كثرت الفلسفات والحكـــم. وتـــاهت الحقيقـــة فى الزحام.

من يجىء بـــها من ذلك الغمار ؟

إنه العقل الإنسانى إذا أحسن استعماله.

فليعلمنا سقراط كيف نستعمل عقولنا..

إنما تفلت الحقيقة منا فى زحام المترادفات، والكلمات التى بوعد بينها وبين دلالاتها.. فإذا عادت إلى الأسماء مسمياتها، وإلى الكلمات دلالاتها، فإن الحق يصبح بين أيدينا.

حين يدعو الضمير إلى الخير، والعدل، والحب، والجمال، والصدق، والعفة.

وحين ينهى عن الكذب، والجبن، والشر، والظلم، فماذا يعنى الضمير تماما بهذه الأخلاقيات...؟

إن تحديد الفكرة ـ لفظا ودلالة، هو وحده الذى يساعدنا على أن نعرف .

وسقراط يأخذ على عاتقه مسئولية هذه المحاولة النبيلة .

عندما تنفرج شفتا متحدث عن كلمة مثل"أحسن" أو "قبيح" فيجب أن تنطلق الكلمة كالرصاصة المقذوفة فى حذق نحو معناها الأوحد حتى لاتضطرب المفاهيم وتتلعثم الكلمات..

ـ"حين قلت يا إريستون إنك سوف تخلف وطن آبائك أحسن مما وجدته، حسبت أننى أدركت معناها كل الإدراك..

إريستون ـ"وهل وجدت صعوبة فى هذا ياسقراط..؟

سقراط ـ أجل، فماذا تعنى بكلمة"أحسن" ياإريستون؟

ـ"الأمر هين ياسقراط، فحين أقول أنـــنى ســأترك أثينـــا "أحسن"مما هى، فأنا أعنى أننى سأتركها"أكبر" مما هى.

ـ دعنا إذن نفكر قليلا ياإريستون، فأنت لاشك تعـــرف "كليونيمس"و"أفاجون"الذى فـــاز فى الأوليمبيـــاد ـ فأيـــهما "أكبر".؟

ـكليونيمس طبعا ياسقراط

ـ وأيهما فى الرياضة "أحسن "..؟

ـ أفاجون

إذن يا إريستون فـــ"الأحسن" ليس هو"الأكبر"... ويعـــود ـ إريستون فيقول :

ـ لا تؤاخذنى هكذا بحرفية القول ياسقراط، فإنمـــا أعـــنى الأحسن هنا، أننى سأعمل حتى أترك أثينا أكثر قدرة علـــى أن تفعل ما تريد لنفسها ومصيرها ...

ويبدو سقراط، وكأنه يعتذر:

ها.. فهمت الآن يا إريستون، ودعنا نفحص هذه أيضا "أيهما أفضل . الشجاع، أم الجبان..؟

ـ الشجاع ياسقراط

ـ وأين يمتاز الشجاع من الجبان..؟

ـ فى ساحة القتال طبعا .

ـ ولكن يا إريستون أليس فى ساحة القتال أشياء أخرى غير الصمود يستطيع الجندى فعلها ـ مثل أن يلقى سلاحه ويهرب..؟

ـ أجل ياسقراط، ولكن الجبان وحده هو الذى يصنع هذا.

حقا ياإريستون ـ الجبان وحده هو الذى يستطيع أن يختار بين الصمود والهرب ـ أما الشجاع فلايملك فى المعركة إلا أداء عمل واحد، هو تنفيذ أمر قائده ..

"والآن، انظر ياإريستون.... إذا كان"الأحسن" فى رأيك هو القدرة على فعل مانشاء، ألا يكون الجبان مثلنا هذا"أحسن" من الشجاع لأنه يستطيع أن يفعل مايشاء وهو الهرب ..؟؟!

"إن القدرة على أن يفعل المرء ما يشاء ليست هى "الأحسن" فلنبحث إذن عن معيار آخر للأحسن يا إريستون"..

هكذا، وعلى هذا النسق الباهر كان"سقراط"يمعن ويغوص وراء الدلالات الخاصة.. وما كان ذلك منه سفسطة أو لغوا، فالسفسطة مجرد تلاعب بالحوار لاهدف له .

أما سقراط فكان يرىأن فى كل كلمة جزءا من الحقيقة، إذا عاوناه على الانطلاق،كون مع الأجزاء الأخرى حقيقة كاملة.

هذا بدء المعرفة ـ الكلمات الواضحة المستقيمة .

"ـ لأن الكلمات الكاذبة ليست متنافرة فى ذاتها فحسب ـ ياإقريطون ـ إنما هى أيضا تبعث الشر فى نفوسنا".

وهذه العبارة الأخيرة تكشف عن أغراض المعرفـــة الــتى يريدها الضمير الإنسانى، فهو لايريد المعرفة لتكديسها، بل ليصل الجنس البشرى بـــها إلى الخير العام .

إن اكتشاف"الخير" وامتلاكه هما أسمى تبعات الإنسان.

وقد تكون كلمة"الخير" قد فقـــدت فى ترجمـــة القـــول والاستعمال بعض قيمتها وحقيقتها ـ بيد أن"الخير" فى جوهـــره سيظل دائما الحياة" فى جوهرها ..

وإذن فربط المعرفة بالخير، من أروع هتافات الضمير.

ذلك أن المعرفة بلا ضمير، قد تكون أقـــرب الطـــرق إلى الكارثة... أما المعرفة النابضة بحب الخير وإرادته فتلـــك هـــى السبيل الأمثل للإنسان .

وما دام الإنسان هو الذى يمسك بالدفة فى يمينه فعليـــه أن يؤثر المسالك المستقيمة حتى لايفلت منه مرفأه وأمنه ..

وسبيل ذلك أن يعرف إرادة الصمود الكامنة فيه. ويشـــد زنادها إلى أقصاه ..

وهنا يقدم الضمير نداءه الآخر.

"اعرف نفسك"

ـ"إن الطبيب يعرف ما ينفع العين، ومدرب الجياد يعرف ما ينفع الخيل.. ولكن من منا يعرف ما ينفع الروح؟.. هذا هو السؤال الحق "..

هكذا قال سقراط:

ـ من منا يعرف ما ينفع الروح..؟ هذا هو السؤال الحق..

ولسوف يجيب"سقراط" على قدر جهده.. وسيتحدث طويلا عما يريده الإله من الناس... وعن الروح وخلودها ومعراج سموها .

وعلى الرغم مما سيخلفه من ضياء ومعرفة، فإن الضمير الإنسانى لايبلغ فى سقراط أوج أمره إلا حين يقرر أن يجعل من ختام حياته درسا ـ أى درس ـ فى أن المعرفة لاتجد نفسها إلا فى الشجاعة العادلة والفائقة .

ـ"لو قلتم لى إننا سنطلق سراحك فى هذه المرة ياسقراط، شريطة أن تكف عن البحث والتفكير لأجبتكم قائلا: أيها الأثينيون، إنى أحبكم وأمجدكم،ولكنى أطيع الله أكثر مما أطيعكم.

"من أجل هذا، لن أمسك عن البحث والتفكير ما دمــــت حيا".

"وسأظل أسائل كل من ألقاه:مالى أراك ياصاحبى تعنــــى بجمع المال وإحراز الجاه والشهرة، ولا تنشد من الحكمة والحــق وتهذيب النفس إلا أقلها، ألا يخجلك هذا ..؟

"لقد حكمتم بموتى، أليس كذلك..؟

"ألا إنه إذا كان الموت سينقلنى إلى حياة أخرى ألتقى فيــها بسائر أبناء الله الذين سبقونا إلى هناك، والذين عمروا حيــاتهم بالمعرفة والفضيلة؛ فذرونى أمت مرة ومرة، ودعـــونى أبتسـم للموت وأتهلل.. فلست أرتاب أبدا فى أن الموت مع الحرية خـير وأبقى.."

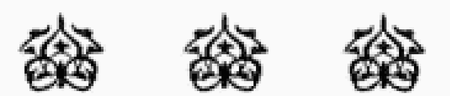
* * *

ويموت سقراط

ويبلغ"الضمير الإنسانى"بموت ابنه البار هـــذا،أوج الــولاء للحق والخير.

وبـــهذا الموت تتم"اللوحة"..تتم "القدوة"التى سواها بارئها فى أحسن تقويم،ويرفع الضمير للأجيال ــ جميع الأجيال وثيقــة من أعظم وثائق الشرف الإنسانى.

ويُبلغ عصر "الرؤيا" ذروته وأوْجَه بهذا الموقف السُّـــــقراطِيِّ العظيم .



## الفصل الثانى



# فى صُحبَة النُّبُوَّة









أين كان الأنبياء والمرسلون خِلال هذه الحركة، وتلك القرون..؟

كانوا هناك لاريب .

بل لعل الضمير الإنسانى فى رؤاه التى صادفها التوفيق إبّان نشأته الأولى لم يكن يُعْوِزُه شىء مِثلما كانَ يُعْوِزُه ما يَحملُ أنبياء الله من هُدًى ويقين .

ففى تلك العصور الخوالى كان هناك مِنَ المرسلين مَن حملوا راية الحقيقة والخير...﴿منهم مَن قصصنا عليك ومِنهم مَن لم نَقْصُص عليك﴾ .

ولا ريب فى أن دورهم فى تنمية الضمير كان باهرًا وعظيمًا.

وفى قضية الألوهية بالذات، حيث ارتفعت بين صفوف

البشرية الأولى الهتافات الصادحة بإله واحد لاشريك له، كان مصدر هذه الهتافات وهذه الدعوة أفئدة الذين آثرهم الله ليبلغوا كلمته وهَدْيَه للناس.

ففى الزمان القديم كان هناك نوح، وإبراهيم، وهود، وصالح .

وكانت دعوتهم المتساوقة والمتحاورة تُرسل أصداءها فى كل أنحاء هذه المنطقة التى نسميها اليوم بالشرق العربى أو الشرق الأوسط.

وكان جوهر رسالاتهم الإيمان بالله الواحد الأحد، والتوسُّل إليه بالأعمال الصالحات..

كما كان هناك بعد هؤلاء، وقبل الميلاد بقُرابة ثلاثة آلاف عام، يوسف وموسى وهارون،يدعون إلى الله الذى لاشريك له.

والآن، فإن علينا أن نتابع حركة الضمير فى ظلال النُّبُوَّة لنرى كيف أفاءت عليه كلمات الله خير أمداد حياته، وانطلاقاته.

وطبيعى أننا لن نستوعب فى حديثنا هذا جميع الأنبياء والمرسلين.. إنما سنكتفى منهم ــ عليهم السلام جميعاً ــ بنوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد يلتقى فيهم، ويجتمع لديهم

كل ما تفرَّق فى إخوانـــهم المرسلين .

فإذا بدأنا بـــ"نوح"عليه سلام الله، فلنبدأ بما تَعينه قصته من تفاؤل عظيم بمستقبل الإنسان وإعلان سيادته على كوكبه .

فبعد كارثة الطوفان الماحقة، لا يخرج الضمير الإنسانى منها فاقد الرجاء محنى الجبهة، بل يتلقى من فوره هذه البشرى الـــتى يحدثنا عنها فيما بعد "سفر التكوين" .

ـ".. وبارك الله نوحًا وبنيه، وقال لهم: أثمـــروا، وأكـــثروا واملأوا الأرض. ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانـــات الأرض، وكل طيور السماء".

إنه فى الوقت الرهيب الذى يُظن فيه أن الحياة قد انتـــهت، يومِض من الغيب هذا الضياء المُرتجَى، كاشفًا عن عظمة الأيـــام الواعدة المقبلة لهذا الجنس البشرى الذى كان يُظن أن الطوفـــان قد أذاع نعيهَ وطوَى أيامه .

وفى ذلك الحين كذلك، يتلقى الضمير وصية الله بالإنســـان وتمجيده إياه .

ـ"سافِكُ دم الإنسان، بالإنسان يُسْفَكُ دمُه، لأن الله علـــى صورته عَمِل الإنسان".

هنا دعوة إلى حق الله فى التقديس والإجلال.

وحق الإنسان، وحق الحياة أيضًا، ولكن من غير أن تذيب التخوم الفاصلة بين الله والإنسان، ومن غير أن يصير الإنسان هو الله.."لأن الله على صورته عمل الإنسان"..

فمهما يكن من شأن الإنسان إذن.. هذا الذى على صُورة الله سُوِّى وخُلق،فإنه لن يبتعد كثيراً عن حقيقة أنه مخلوق لله..

ولسوف يركِّز"نوح" على هذا الاتجاه فينادى قومه قائلا، ومُتسائلا:

﴿مالكم لاتَرْجُون لله وقارًا﴾..؟

{وقد خلقكم أطوارًا﴾ ..

﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقًا، وجعل القمر فيهن نورًا، وجعل الشمس سراجًا﴾..؟

ومع "نوح" عليه السلام، يشهد الضمير الإنسانى إحدى معاركه الشاهقة لتحرير الإنسان من أوهام الوثنية والشِّرك وإنهاء تكبيل الرُّؤَى البشرية بالأذناب الملتوية لتلك الأصنام المنحوتة من حجارة، والسَّاجية على الأرض فى عجز وبلاهة..

﴿ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾.

﴿ياقوم إنى لكم نذير مبين﴾

﴿أن اعبدوا الله، واتقوه، وأطيعون﴾.

ومن"نوح" يتعلم الضمير الشجاعة فى الحق .

﴿يا قوم إن كان كبُر عليكم مَقامى وتذكيرى بآيـــات الله، فعلى الله توكلت، فأجْمِعُوا أمركم وشركاءكم﴾ ..

واختيار الحق فى تجرُّد وتبتُّل وذِمَّة، ثم الدعوة إليه ورفـــع رايته دون أن يكون ثمت أى مطمع، أو غرض، أمـــر يحـــرص الضمير الإنسانى على تنمية موارده.. وهاهو ذا نوح يلتزم هـــذا الموقف فى صمود وجلال.

﴿فإن توليْتم، فما سألتكم من أجر.. إن أجْرِىَ إلا علـــى الله، وأُمرتُ أن أكون من المسلمين﴾.

- ﴿ياقوم .لا أسألكم عليه مالا.إن أجرى إلا على الله﴾.

وحرية الضمير أثمن ممتلكات البشر، وأساس هذه الحرية هو الاقتناع .

﴿يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بيِّنة من ربى، وآتانى رحمة من عنده فعُمِّيتْ عليكم، أنُلْزِمُكمُوها وأنتم لها كارهون﴾؟؟

والمساواة أمام الله، وأمام القانون، مَحتومة ومقدسة.

ومن نوح تلقى الضمير أروع دروسها.. فحين يحلُّ بعُصـاة قومه يوم القصاص يرسل ابتهالاته الضارعة المُلِحة.. إلى الله كـى يدَع له ابنه، ويغفر له عِصيانه.

﴿..ربِّ إن ابنى من أهلى، وإن وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين﴾..

﴿قال يانوح إنه ليس من أهْلِك.. إنه عَمَل غَيرُ صالح، فلا تسألنِ ماليس لك به علَم،إنى أعِظك أن تكون من الجاهلين﴾..

﴿قال ربِّ إنى أعوذ بك أن أسألَك لى مالَيْس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين..﴾

وحين يسأله قومه أن يُبْعد عنه الفقراء االذين آمنوا معه يسألهم. لماذا يفعل ذلك ..؟

وهل هو إلا عَبْد لله مثلما هم عِبادٌ له ..؟

﴿ولا أقول لكم عندى خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إنى ملَك..

﴿ولا أقول لِلّذين تزدرى أعينكمُ لن يُؤتيهُم الله خيرًا الله أعلم بما فى أنفسهم، إنى إذن لمن الظالمين﴾ .

لقد انتعش الضمير الإنسانى وارتوى بهذه التعاليم، وتَلقّى من الله مع نبيه نُوح كلمات أضاءت طريقه وزكّت رُشده ﴿سلام على نوح فى العالمين﴾.

* * *

ويجىء أبو الأنبياء"إبراهيم" ويقطع الضمير معه هجرة من

أعظم هِجْراته ..

إن عقول الناس في "بابل" قد شوَّهت رُؤى الضمير؛ فعلى الرغم من إيمانهم بالألوهة، ذهبوا يتصورونها في أشكال وأوثان.

وإنهم ليتخذون من قوى الطبيعة آلهة... هناك "الآلهة السبعة الذين يقررون المصائر".. وعلى رأسهم الآلهة"آنو، ومردوك، وإنليل" ..

وما دام الناس يَسْتَمْرِئون الخرافة على هذا النحو، فإن رُشْدهم يمضي متعثراً وبطيئاً .

والإيمان بالله الواحد الأحد الذي ليس كمِثله شيء، تحرير أيٌّ تحرير لكل قُوى الضمير والفكر.

ومع إبراهيم عليه السلام، يكتسب الضمير الإنساني رُشدًا جديدًا ..

فالإيمان بالله الحق سيكشف له إبراهيم نهجًا جديدًا.. هو النظر، والتفكر، والاستدلال..

فإذا كان قومه يعبدون الكواكب والنجوم فلينظر إن كان ذلك حقاً ..؟

ويتابع حركة الكواكب طويلا، ويخضعها لتأملاته الذكية.

فلايرى فيها جلال الألوهة، واقتدارها، وينتـــهى إلى أن هـــذه القُوى التى تعتورها تغيرات الحدوث والنُّشوء والتطور والعـــدم، لايمكن أن تكون هى، الله رب العالمين.. وإنما الله هو خالقـــها ومَانِحُ كل شيء وجوده وصُمُودَه .

ومن ثم مضى يهزأ بالأوثان التى ملأت مُدن بابل وقراهـــا. بل وبيوتها . سائلا الناس .

هو ﴿ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون﴾ ..؟

ثم صائحا فيهم

﴿..ربُّكم رب السماوات والأرض الذى فطَرهُن، وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾.

ثم يهاجر بإيمانه إلى أرض جديدة يستودعها غِراسَ الحقيقـة التى رآها وآمن بـــها .

وتسير معه أينما ســار، دعوتـــه إلى الله الواحـــد ـــ رب العالمين ـــ وتسير معه كذلك "كَرامةُ الإنسان"..

لطالما كان الإنسان فى تلك العصور والبقاع تغشاه غواشى اليأس والعجز والشك فى قدرته على بلوغ الكمال.

وكان "صَفْقَة" يعقد المجتمع عليها مع آلهته سلامة حياتـــه ومصيره. فيقدم من البشر قرابين وذبائح. وسيشـــهد الضمـــير

الإنسانى مع نبى الله إبراهيم مشهد الوداع لكل هذا..

إن الإنسان شىء ثمين وعظيم.

* * *

ـ"ظهر الرب لإبرام، "إبراهيم" وقال له: أنا الله القدير، سِرْ أَمامى وكُن كاملا" ..

هكذا يحدثنا سفر التكوين .

فالإنسان الجديد فى ظل ربه الحق، ترفعه مسئولياته ومكانته إلى مستوى الكمال الفريد .

"سرْ أمامى وكُن كاملا" ..!!

ومن ذلك اليوم لن يقدِّم الإنسان ذبيحة وقُربانًا.

وستبطل إلى الأبد عادة اختيار الذبائح والقرابين من بـــين صفوف الناس والبشر.

ولكى يكون إبطالها نـــهائيًا وحاسمًا فَسيتم ذلك فى مشهد حافل ومُثير، يعلن الله فى نـــهايته تحرير رقاب البشر جميعًا مـــن تلك العادة .

مع سفر التكوين مرة أخرى :

ـ"ثم مدّ إبراهيم يده، وأخذ السكين ليذبح ابنــــه، فنـــاداه ملاك الرب من السماء وقال: إبراهيم.. إبراهيم ..

"فقال: هأنذا ..

"فقال: لاتمد يدك إلى الغلام، ولاتفعل به شـــيئًا؛ لأنى الآن علمت أنك خائف الله، فلم تُمسك ابنك وحيدك عنى..

"فرفع إبراهيم عينيه، ونظر، كبشاً وراءه ممسكا فى الغابـــة بقرنيه .

"فذهب إبراهيم، وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه

ومع القرآن فى نفس المشهد .

ـ﴿ فلما أسْلما ، وتَلّه للجبين..

وناديناه أن يا إبراهيم..

قد صدَّقتَ الرُّؤْيا، إنّا كذلك نجزى المحسنين..

إن هذا لهو البلاء المبين ..

وفديناه بِذِبْح عظيم ..

وتركنا عليه فى الآخرين ..

سلام على إبراهيم ..﴾

* * *

وتتنقل الراية من يمين إلى يمين، حتى يحملها نبى الله موســـى عليه السلام .

ـ وهنا يشهد الضمير الإنسانى استمرارًا مُلِحًّا لنفس المحاولة

العظمى... محاولة الإجهاز على الوثنيات التى تحتجز نمو الضمير والفكر وكل قوى الإنسان .

ويرتفع الهُتاف الحق بالله الواحد الذى ليس كمثله شيء.

إن الناس لايزالون يريدون أن يعرفوا الله عن طريق صورته.. وهويّته..!!!

ومعنى هذا أن الوثَنية لاتزال تجذبهم إليها فى قوة وتشبُّث.

ألم يتحدث إليهم مُرسلون كثيرون عَبْر القرون، بأن الله خالق كل شيء؛ وليس كمثله شيء... فما بالهُم ينسون ولا يذكرون .

على أية حال، فليأخذ نبى جديد دوره فى مجال التبصير والتذكير.

* * *

ـ"فقال موسى لله: ها أنا آتى إلى بنى إسرائيل، وأقول لهم: إله آبائكم أرسلنى إليكم، فإذا قالوا لى: ما اسمه، فماذا أقول لهم..؟

"فقال الله لموسى: أهْيَه الذى أهْيَه... أى ـ هو الذى هو..

"قال الله أيضًا لموسى: تقول لبنى إسرائيل يَهْوَه إله آبائكم... إله إبراهيم وإله إسحاق، وإله يعقوب أرسلنى إليكم".

هكذا يحدثنا سِفر الخروج هذا الحديث الذى يُصوِّر زجر موسى لقومه عن أن يسترسلوا مع تلك الاستفسارات المتطفلة التى تنتهى بأصحابها عادة إلى السؤال عن نَسب الله وعائلته.!!

سبحانه عن ذلك وتعالَى.

لقد آن لقضية التوحيد والتنزيه أن تستقر فى وَعْى البشرية على صورتها الصحيحة، ليتفرغ الناس لرعاية الحياة فى ظل ربهم الحق وفى رعايته .

ولقد آن لكل صور الوثنية أن تختفى وتزول .

- ـ"لايكن لك آلهة أخرى أمامى ..
- "لاتصنع لك تمثالا منحوتًا ولا صورة ما، مما فى السماء مِن فوق، وما فى الأرض من تَحْت".

هكذا يعلم الله نبيه موسى، كما يحدثنا سفر الخروج أيضًا ويعلمه كذلك .

- ـ"لا تلتفتوا إلى الأوثان ..
- "وآلهة مسبوكة ، لا تصنعوا لأنفسكم ..
- "أنا الرب إلاهكم.."

* * *

ولقد سهر موسى على تنفيذ هذه التعاليم فى يقظة صارمة.

وحين غاب عن قومه ثم عاد ليجدهم قد اتخذوا لهم صنمًــا عجلا من ذهب له خُوار، حَمِيَ وطيس غضبه، وحطّم الوثــن ثم قذف به إلى جوف نار متسعرة ـ ثم سحقه وذرّاه ففى الهــواء فى حنُق ماحِق .

ومع دَعْم الإيمان بالله وحده، شهد الضمير الإنسانى موكب الوصايا وعاش بـــها ومعها طويلا.

ـ"لقاط حصيدك لا تلتقط، للمسكين والغريب تتركه..

"لا تَسرقوا ..

"ولا تكذبوا..

"ولا تغدروا..

"لا تُبِتْ أجرة أجير عندك إلى الغد ..

"لا تشتم الأصم وقُدام الأعمى لاتجعل مَعْثَرة.

"لا ترتكبوا جَوْراً فى القضاء.

"لا تأخذ بوجه مسكين، ولاتحترم وجه كبير..

"لا تدنس ابنتك بتعريضها للزنا، لئلا تزنى الأرض وتمتلــئ الأرض رذيلة ..

"وإذا نــزل عندك غريب فى أرضكـــم فـــلا تظلمـــوه..

كالوطنى منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم، وتحبُّه كنفسك"..

إن هذه الإنسانيات والأخلاقيات لم تكن فى مفاهيمها الواسعة سوى دعم للمسئوليات التى يفرضها الإيمان بالله.

فليس إيمان الناس بربهم نعمة يُسدونها إلى الله.

إنما هو معراج لحياتهم هُم، يقودها ويأخذ بها إلى آفاق الهدى والخير والفلاح.. أما الله سبحانه فغنى عن العالَمين .

يقول القرآن الكريم :

﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومَن فى الأرض جميعًا، فإن الله غنى حميد﴾

* * *

ويلقى موسى ربه ..

ويستأنف الضمير مسيره المُبارك حاملا تُراثه المذْخُور، وتجربته النامية منذ القِدم وعَبْر القرون ومُذيعاً بهذا كله، فى كل مكان وبكل لسان .

والإنسانيات التى طالما صَدحَ الضمير بها ودعا إليها نلتقى بها فى سِفر الأمثال من جديد .

ـ"ألْق على الرب أعمالك ، فتثبت أفكارك" ..

"البطىء الغضب خير من الجبار، ومالِكُ رُوحِهِ خير ممـــــن يأخذ مدينة"..!!

"لُقمة يابسة ومعها سلامة، خير من بيت ملآن ذبائح مـــع خصام ".

"المستهزئ بالفقير، يُعَيِّرُ خالقه" .

"أفكار الصديقين عدل، تدابير الأشرار غِش".

"لاتحسد الظالم، ولاتختر شيئًا من طرقه"

"إن جاع عدوك، فأطعمه خبزًا.

وإن عطش؛ فاسْقه ماء"..

وتمضى السّنون، وتتواكبُ الأجيـــال، وينســـى النـــاس كعادتـــهم ما ذُكرّوا به ودُعُوا إليه..

بيْد أَن الضمير مشرف فى يقظة على أبراج الحراسة.. ساهر على حماية المبادئ التى رُكّسَ لإنمائها .

والآن، فإن صوتا صادق اللهجة، عالىَ الرنين سوف ينطلق من فؤاد نبى عظيم هو"إشعيا" عليه السلام .

وفى ثورية عادلة سينهض الضمير الإنسانى مع هذا النــــبى ليجعلا من العدالة الاجتماعية قوة فاصلة، ومن طلبـــــها ثـــورة عادلة..

ولما كان رجال الدين يومذاك يمسكون بأيديهم الكثير من سلطة التوجيه .

ولما كان أكثرهم، وأكثر الناس معهم، قد صرفوا الدين عن جوهره واتخذوه تجارة واستعلاء، فلابد لحساب الضمير الإنسانى كله أن يُواجِه هذا الزَّيْغ بمنطق صارم مجلجل.

فليأت إذن"إشيعا".. وليواجه أولئك الذين يُمْعِنون فى غسل أيديهم، ويجعلون من قلوبهم مخازن للخديعة والضلال وكل مُوبقة ومكيدة ...!!

ليواجه أولئك الذين يتقربون إلى الله بذبح خروف.. بينما هم يسحقون الناس، أبناءه وخلقه .

وليواجه تلك الطَّبقية البغيضة التى جعلت قلة مُتخمَة هنا.. وكثرة ساغِبَةً هناك .

فلنُصغ لـ"سِفر أشعيا" ..

ـ"لاتعودوا تأتون بتقْدِمة باطلة"

إنها بدايةٌ موفقة يريد بها أن يعيد الدين إلى جوهره الحق وينتزع النفوس المخدوعة بالشكليات عن الجوهر واللُّباب.

"البخور..؟ هو مكرهة لى ..

"رأس الشهر! والسبت، ونداء المحفل..؟ لستُ أُطيق الإثم

والاعتكاف ..

"رءوس شهوركم وأعيادكم بغضتها نفسى ..

"صارت عليّ ثقلا ..

"مَلْلتُ حملها ..

"فحين تبسطون أيديكم ، أستُر عينى عنكم ..

"وإن كثرتم الصلاة، لاأسمع ..

"أيديكم ملآنة دما" ..!!

ترى ماذا يريد"أشيعا" إذن ..؟؟

يريد الحقيقة.. يريد الجوهر ..

"اغتسلوا .. تنقّوا ..

"اعزلوا شرّ أفعالكم من أمام عينى ..

"كُفُّوا عن فعل الشرّ ..

"تعلموا فعل الخير ..

"اطلبوا الحق ..

"انصفوا المظلوم ..

"اقضوا لليتيم ..

"حامُوا عن الأرملة "..!!

هذه هى البدايات فيما يريد.. أو بالأحرى فيما يريـــد الله،

ويُبلِّغه إشعيا .

• ـ العدل الذى يجعل الناس سَواسِيَة آمنين .

ـ ويل للذين يقضون أقضية الباطل.. وللكتبة الذين يسجلون جوراً، ليصدوا الضعفاء عن الحكم، ويسلُبوا حق بائسى شعبى؛ لتكون الأرامل غنيمتهم ، وينهبوا الأيتام ..

ـ"وماذا يفعلون يوم العقاب، حين تأتى التهلكة من بعيد".

* * *

• ـ والحرية التى تمنح كل مَسْبىٍّ عِتقًا، وكلَّ أسير مُنْطَلَقًا..

ها هو ذا ينادى بها فيقول : ـ

ـ روح السيِّد الرَّب علىَّ ..

"لأن الرب مسحنى ؛ لأبشر المساكين ..

"أرسلنى لأعصب منكسرى القلب ..

"لأنادى للمسبيين بالعتق، وللمأسورين بالانطلاق.."

• ـ والمحبَّة، التى تُجْلى الكراهية والحروب عن مكانها فى حياة الناس وتملأ الأرض سلاماً وأمنًا .

إن رؤيا"أشعيا" عن المحبة تجىء فى صورة بُشرى بالخلاص.. لامجرد دعوة للحب والسلام، تجىء وَعدًا أكيدًا بقدومها وقدُوم مُخلِّص يرفع رايتهما .

ـ" يقضى بالعدل للمساكين ..

"ويحكم بالإنصاف لبائسى الأرض".

وعندئذ.، ولَدَى إهلال تلك الأيام المنتظرة

ـ"يسكُن الذئب مع الخروف ..

"ويربض النمر مع الجدى .."

وأما الناس، والدول، والشعوب

ـ"فيطبعون سيوفهم سِككا ورماحَهم مَناجل .

لا ترفع أمَّة على أمة سيفا..

"ولا يتعلمون الحرب فيما بعد ..!!!

لقد عبَّر نبى الله "إشعيا" بهذه الكلمات والآيات عن أسمى أغراض الوجود الإنسانى .

وسيظل "المُخلّصُون" يجيئون واحدًا بعد آخر لإنجاز هذه المهمة الجليلة .

وسيبقى الضمير الإنسانى يرتاد طريق ذلك المستقبل فى تفاؤل عظيم وإصرار أعظم، مُلقيا فى روع أفراد الجنس البشرى جميعاً حَتْمِية إنجاز هذه المهمة المقدسة.

* * *

وتمضى الأيام ينادى بعضها بعضًا.. وتعاليم الهدى والخير

تكافح فى سبيل استمرارها.

وكالعادة دائما، تبدأ هذه التعاليم فى مقاومة خصومها والكافرين بها، ثم لاتلبث إلا قليلا حتى تجد نفسها تخوض المعركة مع أتباعها وذويها ..!!

وحين نتجه الآن لنلتقى بالسيد المسيح، تواجهنا هذه الظاهرة .

فالذين ارتفعت بين صفوفهم من قريب دعوة المرسلين من قبل بإله واحد للعالمين، لم يلبثوا حتى حوّلوا إيمانهم بالله إلى إله محلّى قومْى .

والذين كان ينبغى أن يكونوا رُحَماء وُدَعاء، راحوا يسرفون فى القتل إسرافًا شديداً حتى نَعَتوه عن سوء فهم بأنه "زكاة للرب" .

والذين كان ينبغى أن يحتفظوا للدين بجوهره ولُبابه وألا يُحرّفوا الحق عن مواضعه، لم يلتزموا هذا الواجب و لم يَفُوا بذلك العهد.

هذا من جانب ..

ومن جانب آخر، كانت هناك"روما" الامبراطورية التى رغم ما كانت تُسديه للتقدم الإنسانى من خير، فإنها كانت

تُذِلُّ الشعوب المستعمرة لها إذلالا وبيلا.

كانت تُصدِّر إليها عِبادة قيصر.. وتستوردُ منها ما لديـها من ثروة ورِزق ..!!

وكانت القسوة الظالمة طابع علاقات الحـاكم بـالمحكوم، والقوى بالضعيف .

وكانت عقوبة الصَّلْب إجراء هينًا يشبِه فى أيامنـا هـذه "لَفْت نظر" أو غرامة"بضعة قروش" ..

وكانت محاولات العبيد الثورية فى روما لتحطيم أغلالهـم، ومحاولات الشعوب المستعمرة خارج روما لنيل حريتها ـ هـذه وتلك تُقمع بوحشية لانظير لها سواها.

ولم ييأس الضمير الإنسانى، ولم يدَع الراية تُسقطها مـن يمينه تلك الأعاصير. بل واصَلَ نضاله ضد المحرفـين والمخربـين والقساة:

وفيما هو يناضل ويقاوم، جاءه من الله ظهير.

● ـ"طوبى للودعاء، لأنـهم يرثون الأرض.

"طوبى للجياع والعطاش إلى البِر، لأنـهم يشبعون

"طوبى للرحماء، لأنـهم يرحمون..

"طوبى للأنقياء القلب، لأنـهم يعاينون الله..

"طوبى لصانعى السلام، لأنـــهم أبناء الله ويُدْعَوْن ـ"..!

إنه السيد المسيح يتحدث

وإنه باسم الله وعَلى بركَته يأخذ بيد الضمير الإنســانى إلى نُهاه وهُداه ..

ولكن، أفى مُواجهة هذا الظلم، وهذه القسوة يقال للنــاس: طوبَى للودَعاء.. طوبَى للرحماء.. طوبَى لصانعى السلام ..؟؟!!

أجل، ولا يقال إلا هذا فى مثل ذلك المقام .

فالمسيح لم يأت ليحل قضية قومية. أو زمنية، إنمـــا جـــاء ليكشف للإنسانية بعض حقائقها الخالدة ثم يمضى ، ومن هـــذه الحقائق. أن البشرية منذ نشأتها تقاوم الشر بالشـــر، والســيف بالسيف، فماذا صنعت..؟ وإلام انتهت..؟

لا شىء.. مشاكلها تتفاقم.. ورصيد الشر ينمو ، وقـــوى الكراهية تزيد.

ولقد ارتفعت من قبل أصوات صادقة وأمينة تدعو إلى المحبة والرحمة.. ولكن الناس ـ جميع الناس ـ أصروا على الثّأر، ودفـع الشر بالشر.

وقد يكون ذلك طبيعيًا بعض الوقت.. ولكنه لاينبغـــى أن يكون طبيعياً على الدوام .

فما دامت البشرية تسير إلى كمال مقدور ، فأولى سِمات هذا الكمال، لابد أن تكون نبذ الكراهية والقسوة والقتال .

وهذا ما جاء المسيح لتبيانه على أوضح نَهْج.. تبيانه لابما يقول من كلمات فحسب.. بل وبالنموذج الكامل لسلوكه وحياته .

قد نقول نحن اليوم عن هذا المنهج الفريد: إنه تجربة لابأس بها ..

بيد أنه عند المسيح لم يكن تجربة.. ولَدَى الضمير الإنسانى لم يكن كذلك أيضًا.

هو شيء أصدق وأعظم.. هو حقيقة وجَوهر..

إن المسيح يقول للناس بموقفه ذاك.. إن البشرية ماضية حتما إلى هذا.. وذاك هو مصيرها وهذا هو شكلها القادم.. إخوان يحبون إخواناً، لايقاومون الشر بالشر. بل بالخير.. ولايزجرون الكراهية بالكراهية.. بل بالحُبّ، حتى يختفى الشر وتزول الكراهية.

فما دام هذا هو المستقبل المشرق المحتوم، فلماذا لايتعجله البشر.؟ ولماذا لايحثون الخُطى إليه..؟ فليبدأ المسيح إذن، وهذا هو السبيل :

ـ"سمعتم أنه قيل: عَين بعين، وسِنٌّ بسن ..

"وأما أنا فأقول لكم: لاتُقاوموا الشَّر ..

"بل مَن لطمك على خَدِّك الأيمن، فحوِّل له الآخر أيضًا..

"ومن أراد أن يُخاصمك ويأخذ ثوبك، فاترك له الـــرداء أيضاً..

"ومن سخرك مِيلا واحدًا. فاذهب معه ميلين ..

"مَن سألك فأعْطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا تردّه ..

"سمعتم أنه قيل: تحب قريبك وتُبغض عدوك..

"وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم ..

"باركوا لاعِنيكُم ..

"أحسنوا إلى مُبغضيكم ..

"وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكـــم؛ لكـــى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السماوات؛ فإنه يشرق شمسه علـــى الأشرار والصالحين، ويُمطر على الأبرار والظالمين" .

تُرى.. أيُستطاع هذا..؟؟

ـ كيف يحب الإنسان مُبغضه ..

ـ كيف يُبارك لاَعِنَه، ويُحسن إلى شانِئِهِ..؟

عند المسيح لايكون السؤال هكذا.. بل يكون:

ـ كيف لايُحب الإنسان مُبغضه ..؟

ـ كيف لايُبارك لاعِنَه ..؟

ذلك أن الإنسان الذى يدعوه المسيح لهذا، هو الإنسان البارّ المتفوق .

فإذا تشابَهت حوافز الأبرار وحوافز الأشرار فأين إذن مزيَّة الأبرار..؟ وإذا كان حبهم ووُدّهم مجرد رد فعل لحب الآخرين إيَّاهم ومودّتهم لهم فأى فضل لهم ..؟!

ـ".. لأنكم إن أحببتم الذين يحبونكم؛ فأىُّ أجر لكم..؟

"ألَيْس العشّارون أيضا يفعلون ذلك ..؟!

"وإن سلمّتم على إخوانكم فقط، فأى فعل تصنعون..؟

أليس العشّارون أيضاً يفعلون هذا..

"فكونوا أنتم كاملين، كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل" ..!!!

إن وأْد نوازع الشر والتربُّص إلى هذا المدَى البعيد هو هدية المسيح إلى المصير الإنسانى كله .

ولقد بلغ الدرس جلاله الأعظم حين أصرَّ المسيح على انتهاج هذا المَسلَك فى أخطر لحظات حياته .

فحين اقتحمت قوى الشرّ مُصَلاّه.. وأوثقه الباغون

وحَملوه إلى حيث أرادوا أن يضعوا نهاية لحياته الطاهرة الجليلة.

ساعتئذ، وحين هَوَى تلميذ من تلامذته بسيفه على أحـــد الجنود المقتحمين فصَلَم أُذنه، وصاح المسيح فى وجهه صيحتـــه المباركة:

ـ" رُدَّ سَيفك إلى مكانه .

"لأن الذين يأخذون بالسيف، بالسيف يهلكون"...

* * *

**قلنا: أن دور المسيح كان متمثلا فى أن يُعلن هذه الحقيقـــة الخالدة حقيقة أن المحبة أقوى وأبقى وأن مقاومة الشـــر بالخـــير ليست ممكنة فحسب، بل ومحتومة الظفر والنجاح أيضاً.**

**وقلنا إن دوره فى هذا لن يكون بمجرد ترداد هذه الحقيقـــة بكلماته.. بل وصَوْغ نموذجٍ لها فى حياته .**

**وهكذا ثابر عليها حتى لقى ربه .**

فماذا حدث بعد رحيله عن دنيا الناس...؟؟

إن كهنة "أورشليم" بكل مكرهم وغدرهم..

وإن سلطان روما فى "أورشليم" بكل عَتاده وعناده..

بل إن أباطرة روما جميعًا ـ والامبراطورية الرومانية كلـــها، قد صاروا وصارت ترابًا، ونسيانًا ، وبَدَدًا .

أما المسيح.. أما إنجيله.. أما مملكته.. ـ ومعذرة إليه عـــن هذا التعبيرـ فلننظر.. أى ذُيوع ؟ وأى مجد؟ وأى سلطان، منــذ رحل عن الأرض حتى اليوم ..!!!

صحيح أن البشرية لم تستطع مع دعوته إلى الحب صبْرا..

وصحيح أن الكنيسة نفسها، قد حملت فيما بعد كل ألويــة الكراهية والقسوة والبطش، وضِدَّ مسيحيين من بنى جلْدتـــها..

وصحيح أن ما أحرزته المسيحية من مجد ونفوذ وسلطان لم يكن ما يريده المسيح ..

كل هذا حق... ولكن كل هذا لايطمس ذرة من الوجـــه الآخر للحق وهو أن المحبة كحقيقة ظافرة قد بلغت فى المســـيح منتهى الوضوح والصدق .

فـــ"ابن الإنسان" الذى عاش بالحب، وللحـــــب.. هـــذا الأعزل من كل سلاح.. الفقير من كل مال.. النابذ لكل جاه أو سلطة يكتب له ولدعوته من الخلود ما لم يظفر بمعشار معشـــاره كل مَن حمَلت الأرض من أباطرة وملوك وسادة وأثرياء ..؟

إن المحبة إذن قادرة على صنع المعجزات التى ليست كمثلها معجزات .

وإن مقاومة الشر بالخير، والسيف بالسَّكينة، والكراهيـــة

بالحب ..

إن ذلك كله. وإن لم يَخْم صاحبه أحيانًا من الضُّرِّ فى حياة الناس القصيرة، فإنه دائما وأبدًا وحَتْمًا يمنح حياته ودعوته خلودًا لايُطاوله خلود، ويستبقى منه للبشرية بعد رحيله عنها كل نَفْعِه وعَبيره وهُداه ..

ولقد مضى المسيح فى دعم السلام الاجتماعى بمنطقه العذب وإقناعه الوديع، غير تارك وسيلة تُحْييه وتشد أزره إلا أوصى بها وجعلها شَعيرةً وعبادة .

ـ"قد سمعتم أنه قيل للقدماء: لاتقتل. ومن قتَل يكون مستوْجب الحُكْم ..

"أما أنا فأقول لكم: إن كل مَن يغضب على أخيه باطلا يكون مُستوْجِب الحُكم."

ثم يمعن إمعانه النبيل فى دَعْم هذا السلام وهذا الإخاء فيقول :

ـ"فإن قدمتَ قربانك إلى المذبح، وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك، فاترك هناك قربانك قدَّام المذبح، واذهب أولا، واصطلح مع أخيك، وحينئذ تعالَ وقدِّم قُربانك".

ويسأله تلميذه الأول"بطرس".

ـ"كم مرة يخطئ إلىّ أخى، وأنا أغفر له..؟

"هل إلى سبع مرات ..؟

ـ قال له يسوع :

"لا أقول لك إلى سبع مرات.. بل إلى سبعين مرة" ..!!

وإذ كانت الأنانية، والطمع، واحتكار أسباب الرزق، من شر ما يُمزِّق وشائج السلام والإخاء والمحبة، فقد قاومها المسيح وسفَّهها جميعًا، ونادى بأن علاقة الناس بالمال يجب أن يكون أساسها القناعة لاالشَّر..

• ـ" لا تكنــزوا كنوزًا على الأرض حيث يفسد السوس والصَّدأ، وحيث ينقب السارقون، ويسرقون..

• ـ"لا يقدر أحد أن يخدم سيدين؛ لأنه إمــا أن يبغض الواحد ويحب الآخر.. أو يُــلازم الواحــد ويحقــر الآخــر.. لاتقدرون أن تخدموا الله والمال"

وحين يُسأل يوما عن طريق البر والكمَال، يجيب سائله:

ـ"إن أردت أن تكون كاملا، فاذهب بربع أملاكك، وأعط الفقراء، فيكون لك كنــز فى السماء، وتعال اتبعنى.."

وإذا كان غِياب التسامُح ، يعنى الشطَط وتوتر العلاقــات الإنسانية، فقد وقف"المسيح" يشيد بالتسامح وتقدير الظــروف

الإنسانية تقديرا يُفيء الحنان والتعاطف.

• ـ"لا تدينوا لكى لاتدانوا.. لأنكم بالدينونة التى بـها تدينون، تدانون..

"وبالكيل الذى به تكيلون، يُكالُ لكم"

ومن ثمّ كانت طريقته فى مقاومة الخطيئة ملائمة تماماً لإيمانه بالمحبة وبالرحمة ..

"إنى أريد رحمة، لاذبيحة، لأنى لم آت لأدعُوَ أبراراً للتوبـة بل خطّائين" ...!!

وإذا كان الخير والشر مُتزاملَين فى الحياة الإنسانية تزامـل السّالب والموجب؛ فإن أزكى السُّبُل لإرْباء جانب الخـير هـى الدعوة الحانية إليه والأخذ بيد الخُطاة فى مشاركة عاطِفة.

والله ربه، ودودٌ ورحيم.. قلمًا تحدث المسيح عنه سـبحانه كمنتقم وغضوب.. وطالما تحدث عنه كأب حانٍ ورحيم.

• ـ"اسألوا تعُطوْا.. اطلبوا تجدوا.. اقرعوا يُفتح لكـم..؛ لأن كل من يسأل يأخذ.. ومَن يطلب يجد.. ومَن يَقْرع يُفتـح له..

• ـ"أم أى إنسان منكم إذا سأله ابنه خبزا يعطيه حجَرا..؟ وإن سأله سمكة يعطيه حيَّة..؟

"فإن كنتم وأنتم أشرار، تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيِّدة، فكم بالحرىّ أبوكم الذى فى السماوات، يَهب خيرات للذين يسألونه "..؟!

رؤية مُشرقه لرب عظيم ..!!

هذا الربُّ الأحد الذى دعا المسيح لعبادته وحده فقال!

".. مكتوب للرب إلهك تسجد ..

"وإياه وحده تعبد ..!!"

* * *

هذا هو الحب العظيم، الذى حمل أمانته، وأنجز تبعاته"ابن الإنسان "يسوع ..!!

وما أعذب الحب وما أجلَّه حين يكون نموذجه المسيح..

لقد كان الحب دينه ووصيته وحياته .

ولقد سأله سائل .

ـ"يامُعلِّم.. أية وصية هى العظمى فى الناموس..؟

"فقال له يسوع: تحب الرب إلاهك من كل قلبك، ومن كل فكرك، ومن كل نفسك ..

"هذه هى الوصية الأولى والعظمى ..

"والثانية مثلها، تحبُّ قريبك كنفسك "

وكلمة"قريب" حين ينطقها المسيح، يتراحَبُ مفهومها حتى يشمل الخليقة الخيِّرة جميعها .

• ـ "لأن مَن يصنع مشيئة أبى الذى فى السموات هو أخى، وأختى، وأمى "..!!

* * *

وهكذا تلقَّى الضمير الإنسانى من هذا القلب المحب الذكىّ جُرعة شباب طويلة ـ بل قولوا: خالدة.. وسيَظل بها ريَّانا وَضيًّا.

كما تَلقت الحياة الإنسانية. نفس الجرعة المباركة أيضاً..

* * *

وتمضى الأيام فى تتابعها المعهود والضمير الإنسانى يُنَمِّى خلال الزمان تراثه.. تراثه الذى أفاءته عليه خبراته ورُؤاه.. والذى تلقاه من أنبياء الله ورسله ..

ويخوض معركته الدائبة مع قوى النكوص والتردد والمراوَغة.

وبعد رحيل المسيح، كانت معركة الضمير قاسية، فاللحظات الباهرة التى عاشها الضمير مع المسيح فى حلم سعيد، ولَّتْ حثيثة ..!!

واكتشف الضمير أن الحب الذى عاشه المسيح وتحدث عنه كان فى غير أوانه.. والطبائع الإنسانية، لايزال المـــدى الـــلازم لترويضها مديداً وبعيداً ..

لقد أعطى المسيح البشرية إحدى الحقائق الكبرى، وهى أنه فى مستطاع البشر أن يذيبوا كل مشـــاكلهم فى دفء الحـــب والرحمة .

وسيكون دور الضمير فى تلك المرحلة من مَسيره أن ينقـــل إلى الأجيال انطباعات تلك الحقيقة الناجحة التى شهدها بنفســـه وعاشها مع بطلها العظيم .

ولكنه لايكاد يبدأ حـــتى تفـــدح ســـكينته الأحـــداث، فالصفوف التى حملت لواء المسيح، يستشرى بينـــها التحريـــف والنـــزاع.. أجل بينها نفسها..!!

إن المثل العليا عادت ولا أثر لها فى نفـــوس أتباعـــها وفى الحياة، إلا فى تلك الأشكال والمظاهر.. فى الكـــاهن والذبـــح، والاغتسال فى دم المسيح .!!

وإلا ذلك النـــزاع القاتل مِن الذين فرقوا دينهم وصـــاروا شِيعًا ـ لكل فريق مَسِيحهُ وثالوثُه .

والكنيسة البيزنطية تصلى المسيحين أنفسهم الذين لايؤمنون

بمذهبـــها عذابًا واضطهادًا.

والعالم يومئذ يقع فريسة لموجات رهيبة من إغارات السطو والنهب، والتخريب ..

وأكبر إمبراطورياته يومذاك تعـــانى وتعـــانى شعوبـــــها ومستعمراتها معها الانحطاط، والدَّمار .

فإمبراطورية الرومـــان الشـــرقية. وإمبراطوريـــة الفـــرس الساسانية، تترنحان تحت ضربات ما ضيها الظّلوم وحاضرهمـــا التعَّسِ .

والعالم كله تقريباً فى حالة فقدان تام لكل توازنه السياســى والاقتصادى والاجتماعى .

أما حياته الروحية، فقد أجدَبـــها قَحط مُميت، وتحوّلـــت القيم الدينية والأخلاقية بين أيدى الحكام والسدنة إلى صفقة..

أما فى قلوب الجماهير وعقولها فقد تحولت إلى أسـطورة ــ عدا بقيَّة مِمَّن رَحِمِ الله .

وفى هذه المنطقة بالذات، حيث ينعكس عليـــها فوضـــى بيزنطة وتدهور الفرس..

فى هذه المنطقة كما فى سواها وقعت الحياة الإنسانية تحت وطأة التخاذل والتفكك والضيّاع.. ولم يعد هناك مثَـــلٌ أعلـــى

يجمعهم ويردُّهم إلى رُشدهم الأوَّل .

إنـها ظاهرة مؤسفة ومحيرة ..

فأين محاولات الضمير فى كل تلك الألوف السالفة من السنين ..؟

أين هُتافات المصلحين والفلاسفة والرواد ..؟

وقبل هذا كله.. أين التراث الروحى العظيم الذى خلَّفه للبشرية كلها الأنبياء والمرسلون ..؟

لقد بدا الأمر ـ وكأنما أفلتت من يد البشرية جميع أرباحها العظيمة ..

حتى الإيمان بإله واحد أحد.. هذا الذى توالت مواكب الأنبياء هاتفة به .

حتى هذا الإيمان يضيع فى لُجج الحقد وزحمة الضلال..

وإذا كان هذا الجزء من العالم، حيث الإمبراطورية الرومانية الشرقية، والإمبراطورية الفارسية، وما يدور فى فَلَكيَهْما من شعوب وبلاد ..

إذا كان هذا الجزء الكبير من الدنيا، وهو يومذاك الجزء المتحضر، أو الأكثر حضارة ..

إذا كان قد تهاوى تحت ضربات الخلاف والانحلال إلى

هذا المدَى.. فما شأن بقية الدنيا إذن..؟!

إذا كانت البقاع التى يتوافد عليها أنبياء الله منذ عدَّة آلاف من السنين ـ قد نحَّت الإيمان بالله جانبًا، وذهبت تحتَرِبُ فى عنف حول طبيعة المسيح ـ وهل هى واحدة أم متعددة..؟!

وذهب بعضها الآخر يعبد أصناماً، وأوثاناً..

وإذا كانت البقاع التى ششهدت ميلاد كل مثـــل أعلـــى لايجد أهلها اليوم مثلا أعلى واحـــدًا يجمع شتاتـــهم ويضـــىء أفئدتـــهم، فما حال ذلك المُنحنَى البعيد من العالم ..؟

إذا كان الروم الذين ورثوا دين"المسيح" قد انتهوا إلى هـــذا المصير المحزن ..

والفرس الذين جاءهم"زرادشت" قبل الميلاد بستمائة عـــام وثار ثورته المباركة على الوثنية والمَجُوسيَّة، وحطم بعزم رشـــيد الأصنام التى كانوا يعبدونـــها من دون الله.. ودعاهم إلى عبـادة الله وحده، إله النور والسماء"أهورا ـ مزدا" خالق الســـماوات والأرض، والشموس والكواكب التى كانوا يعبدونـــها مـن دون الله.. وناداهم إلى كل فضائل الحياة وزجرهم عن آثامهم ..

بيْد أنه ما كاد يرحل عنهم إلى ربِّه حتى حرَّفوا شـــريعته، وعَبدُوا النار وقدَّسوها. واتخذت كل أُسْـــرة لنفســـها مَوقِـــدًا

لاينطفئ ناره قط، يتحلقون حولها ضارعين مُصَلين.

والإمبراطورية التى تأسَّت يوماً بتعاليم"زرادشت" عـــادت تنشر الظلم والفساد والإثم فى كل مكان .

أليس العالَم كله إذن ـ لا قُريـــش وحدهـــا ـ فى حاجـــة يومذاك إلى بشير ونذير ..؟؟

ولكن بأية دعوة يجىء هذا البشير ..؟

إنـــها نفس الدعوة السابقة، والحقيقة السالفة التى هتـــف بـــها الأنبياء والمصلحون .

فتلك الدعوة لم تكن باطلا حتى يجىء اليوم بسواها.

وهى لم تُخفق حتى تجىء بأخرى ظافرة .

إنما الناس هم الذين أخفقوا فى الأخْذ بـــها والسير وَفْقَها.

سيجئ رسول جديد إذن ليرد لهذه الدعـــوات الصادقـــة شبَابـــها..

ولأن أيامه المباركة فوق الأرض ستكون آخر جوْلة للنبـــوة وللوحى فى دنيا الناس؛ فإنه فى سبيل السمو بالروح، لن يعمـــل بعيداً عن كل ماليس روحياً فى طبيعة الإنسان .

لن يبنى"ملكوت الله" فى أفئدة الأبرار وحدهم، بل سـيقيمه ويشيده وسط صفوف الجماهير والكافة بكل خيرها وضَعفها.

وهو لهذا لن يدَع تعاليمه وديعة لدَى المُيول الخيِّرة والنوايا الطيِّبة للناس، بل سيغرسُها فى أعماق الطبيعة الإنسانية والطبيعة الاجتماعية معًا .

وهو لن يتركها حكمة منثورة ، بل سيصوغها فى تَلاَحم فذ، حتى يجعل منها قوانين للروح وللحياة .

* * *

وهكذا مضى الضمير الإنسانى يبحث عن الرائد الجديد.. يبحث وسط العالم المتهاوى.. يبحث وسط الظلام والضياع..

ولكن الله كان أبّر وأرحم، فقد اختار بذاته البطل.. اختار الرسول الذى سيُتمِّم عمل المرسلين .

والراية التى حملها نوح وهود وصالح وشعيب ..

وحملها إبراهيم وموسى والمسيح ..

الراية التى حملها عشرات، ومئات من أنبياء الله والتى خفقت عاليًا بكل آيات الخير والحق والإيمان.

هذه الراية سيحملها المختار محمد... وسيقود تحت لوائها ذلك العالم الضال المتعطش إلى التوحيد وإلى الإخاء، وإلى العدل وإلى الحرية ..

أجَل لِينهض رسول الإيمان والعزيمة فقد جاء دوره .

لينهض. لكى يُمكّن فى الأرض آخر كلمات السماء..

و﴿ياأيها الرسول بلّغ ماأُنــزل إليك مِـــن ربــك، وإن لم تفعَل فَما بلَّغْتَ رسالته.. والله يَعصِمُك من الناس﴾

* * *

﴿إنَّا أرسلْناكَ بِالْحَقِ بَشيراً وَنذِيراً﴾

* * *

﴿كذلك يُوحِى إليك وإلى الذين مِن قَبْلِــك، الله الْعزِيــزُ الْحكِيمُ﴾

* * *

﴿وإنك لتهدِى إلَى صِرَاطٍ مُسْتقيمٍ..

﴿صرط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض..

﴿ألاَ إلَى اللهِ تَصيرُ الأُمُورُ﴾

* * *

﴿فَإن أَعرضوا، فما أرسلناك عليهم حفيظًا، إنْ عَليــكَ إلا البلاغ﴾..

* * *

وقام الرسول يبلغ رسالته، ويردُّ الإنسانية إلى ربــها الحــق ويفتح أمام ضميرها سُبل الرُّشْد ومَسالِك التطور نحــو المعرفــة

والخير والارتقاء .

ماذا أعطى محمدﷺ الضمير الإنسانى وماذا أضاف إلى تُراثه..؟

إن هذا يتضح من خلال معرفتنا جوهر الرسالة المحمدية ذاتها فما جوهرها ؟

لعلّ هذه الآيات القرآنية تجمع هذا الجوهر وتشير إليه.

- ـ﴿ إنما الله إله واحد ﴾.
- ـ﴿وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارَفوا﴾
- ـ﴿فاستبقوا الخيرات، إلى الله مرجعكم جميعاً﴾
- ـ﴿هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون﴾

أجل ـ تلك هى الأسس التى ستنهض عليها كل مبادئ الدين وتعاليمه .

١. الله رب العالمين ..

٢. الناس كلهم إخوة ..

٣. الخير، لا الشر ، هو مناط وجودنا، وزادُ مصيرنا..

٤. الحياة شروق متجدد ومستمر لرؤى المعرفة والعلم..

هذه هى الحقائق التى سيغرسها محمد عليه الصلاة والسلام فى الضمير الإنسانى ويُحكم غِراسَها ..!!

ـ فأما الحقيقة الأولى، وهى وجود الله ووحدانيتـــه؛ فـإن محمداً يعطيها جلالها الحق، ويعطينا صورتها المُثلى .

وأى عجب، وقد تلقَّاه قلبه من بارئه ليكون مِن المُنذرين؟!

لقد وضع القرآن عقيدة التوحيد والتنــزيه مكـــان كـــل محاولات التعدُّد ، والشِّرك، والوثنية..

ولقد أعلن هذا بصورة حاسمة فاصلة ..

ـ﴿إن إلهكم لواحد..﴾

﴿ربُّ السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق﴾

* * *

وهو منـــزه عن كل ما يتصوره الناس من تشبيه، وتمثيـــل وتجسيد .

﴿ليس كمثله شئ﴾.

﴿لم يَلِد، ولم يُولَد﴾.

* * *

وهو مصدر الوجود كله. والخير كله .

﴿كُلاًّ نُمِدُّ هؤُلاءِ وهؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ ربِّكَ ومَا كَانَ عَطَـــاءُ ربِّكَ مَحْظُوراً﴾

وهو الذى صمم وحده هذا الكون الهائل، وضمنه قوانينـــه

التى تحركه وتـــهديه .

﴿أعْطَى كُلَّ شَىءٍ خلْقه، ثُمَّ هَدَى﴾..

* * *

﴿الَّذِى خَلق فسوَّى، والَّذى قدَّر فهدى﴾..

* * *

﴿ولَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً﴾

* * *

وهو رب ودود ، وأب شفوق..

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفسِهِ الرَّحْمةَ﴾..

﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾..

* * *

﴿وَرَحْمَتِى وَسعتْ كُلَّ شَىءٍ﴾..

* * *

﴿إنَّ الله بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾..

وهو إلى جوار ذلك أحكم العادلين،فلا يُحابى ولايجامل..

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كسَبت رَهِينَـــةٌ﴾..

* * *

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يَرَه﴾..

﴿ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾.

* * *

﴿ولا تَزرُ وَازرَةٌ وِزْرَ أُخرى﴾

* * *

﴿وما أنا بظلاَّم للعبيد﴾

﴿وإن كان مِثقالَ حبَّة من خردلٍ، أتينا بـــها... وكَفى بنا حاسِبين﴾

* * *

وهو حاضر لا يغيب، لا يَفتقده زمـــان، ولا مكـــان، ولا مخلوق :

﴿وسع كُرسيهُ السماواتِ والأرض﴾

* * *

﴿ما يكون مِن نجْوى ثلاثة إلا هو رابعهم﴾

* * *

﴿أم يَحسبون أنّا لانَسمع سرَّهُم ونجْوَاهم..؟ بلى.. ورُسلُنا لدَيهم يكتبون﴾

* * *

وهوسبحانه ربُّ الجميع، ليس بينه وبين عباده حجـــاب،

ولا يقف على أبوابه الواسعة كُهَّان، ولاحُرَّاس، ولا سَدَنة.

﴿فأينما تُولُّوا فثَمَّ وجْهُ الله﴾..

* * *

﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب﴾

* * *

وهو ليس إله قريش وحدها، أو العرب وحدهم، أو المسلمين وحدهم.. ليس إلهاً مَحلّياً أو قَومياً.. بل هو رب العالمين جميعاً

﴿يابنى إسرائيل، اعبدوا الله ربى وربّكم﴾

﴿يا أهل الكتاب، لاتغلُوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾..

* * *

﴿يا أيها الناس، اعبدوا ربكم الذى خلَقكم﴾

ليس رب محمد إذن إلا رب الأقوام كلهم، والناس أجمعين.. ولافضل لقوم عند الله على آخرين..

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾..

وهو إذا آثر قومًا؛ أو أحدًا بحبه ورضوانه، فليس إلا لما معهم من خير وصلاح.

فهو سبحانه :

﴿يحب المُقْسطِين﴾..

﴿يحب المُحَسنينْ﴾..

﴿يحب الصابرين﴾..

﴿يحب التوَّابين، ويُحب المتطهرين﴾..

﴿يحب المتقين﴾

وكذلك الشأن فيمن. وفيما لايُحِب..

فهو سبحانه :

﴿لايحب المعتدين﴾ ..

﴿لايُحب الفساد﴾..

﴿لايحب كل مختال فَخور﴾..

﴿لايحب المستكبرين﴾..

﴿لايحب كل خوَّان كَفُور﴾..

﴿لايُحب الظالمين﴾..

* * *

وأما الحقيقة الثانية.. وهى الأخوَّة البشرية ، فقد جلاَّهـــا ووضعها فى أحسن تقويم .

فالرسول الذى نشأ فى بيئة قبلية، القبيلة فيها أوسع مجـــال

جغرافى؛ وأرحب مدى لحدود التآخى والتعارُف ـ يُطِلّ بروحه على الأرض كلها والبَشرية جميعًا ـ أبيضها وأسودها وأصفرها.. ويتردد فى القرآن المُنزل على قلبه كلمة{العالمين} عشرات المرات ..

فالله ﴿رب العالمين﴾ ..

والقرآن ﴿ذِكْرٌ للعالَمين﴾

والرسول ﴿رحمة للعالَمين﴾

* * *

﴿لتكون للعالَمين نذيرًا﴾

﴿يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا﴾

* * *

ومن بين جميع الأنبياء والمرسلين ـ كان محمد الرسول الوحيد الذى كتب لكل الملوك والرؤساء المجاورين له، بل والبعيدين منه.

وهو حين كتب إليهم يبلغهم كلمة الله، لم يكن يملك قوة ـ أية قوة ـ تُضفى عليه سِمَة الفاتح، أو الراغب فى فتح .

كان صاحب دعوة لاأكثر، أمره ربه أن يبلغها الناس جميعًا

ولما لم يكن قادرًا على أن يطوف بالأرض كلها، ويقابل

الشعوب جميعًا .

ولما كان الناس على دين ملوكهم إلى حد كبــير.. فقــد اكتفى يومئذ بأن يبلغ ملوك الأمم ورؤساءها جوهــر رســالته ليؤمنوا وليدعوا أقوامهم إلى الإيمان .

فهو بكتبه تلك التى أرسلها هنا وهناك. إنما كــان يحمــل تبعاته تجاه البشرية كلها. إيمانًا منه بوَحْدتها .

وحقيقة أن الناس كلهم إخوة.. تتجلّى فى القرآن الكــريم تجلّياً باهرًا .

فالقرآن لايرى هذه الوحـــدة فى صورتـــها التاريخيــة والاجتماعية فحسب.. بل ويراها كذلك فى صورتها البيولوجية، وبهذا يعطيها قداسة أوفى .

ها هو ذا يتتبَّع الأطوار البيولوجية لهذه الوحدة، فيقول :

﴿ومن آياته ، أن خلقكم من تُراب﴾.

* * *

ثم ـ ﴿خلقكُم من نفس واحدة﴾

* * *

ثم ـ ﴿خلَقكم ، والذين من قبلكم﴾..

* * *

أما صورتـــها التاريخية والاجتماعية، فيعرضها فى هذه الآية الكريمة :

﴿وما كان الناس إلا أُمة واحدة فاختلفوا﴾..

* * *

فالبشرية إذن بدأت كلها من تراب، ثم من أب واحـــد.. وهى كلها بدأت فى التاريخ أمة واحدة وعالماً واحداً..

أجل ـ كانت رعيلا واحداً ذات يوم.. ولكن هذا الرَّعيـل تحوَّل مع نُموِّه المتكاثر، وهِجراته الكثيرة التى غَمَر بـــها وجـــه الأرض ـ إلى شعوب وقبائل وأمم.

وفيما بعد، وقد صار لكل شعب شخصيته ومصالحه، بـدأ الخلاف، ولكن ستكون العاقبة أن تعـــود البشــرية إلى نقطـــة انطلاقها فى حركة"حَلَزُونية" وفى مُستوى أعلى".

وكذلك :﴿ وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارَفوا﴾

هكذا أعطى القرآن الإخاء البشرى قانونه، وهو يُتمُّ صياغة هذا القانون فى حِذقٍ عظيم.

فإذا كانت الآفة التى تعرقل نمو الإخـــاء والتعـــارُف هـــو التعصب ففيم يكون التعصُّب عادة ..؟

إنه يكون للجنس.. واللون.. واللُّغة.. فلْيمحق القرآن هذه

الآفة فى محيطه ليعطى القدوة والمَثَل ..

لقد بدأ فأعلن ـ كما سبَق ـ أن الله رب العالمين ..

وأكرَمُ الناس على الله، ليس أبيضهم ولا أسودهم بل أتقاهم .

وأعلن الرسولﷺ أنه :"لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى"

ورفعَ"بلالا" الحبشى. و"سَلمْان" الفارسى فى دعوته وأمته مكانًا عَليا ..

وهكذا نَحَّى التعصُّب للجنس بعيدًا.

أما الَّلون، واللغة فقد عجب القرآن، وعجب الرسول من الذين يجعلون منهما امتيازًا يعطيهم حقوقًا ليست للآخرين، بينما هما ليسا إلا آيتين من آيات الله..

﴿ومن آياته خَلْق السماوات والأرض، واختلافُ ألسنتكم وألوانكم﴾

* * *

ووقف "محمد" عليه السلام ينادى فى الناس:

"ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى"..!!

وانتظم القرآن مِن آياته وكلماته، كلمات ليست عربيـــة، ليُعلِّم الناس أنه وهو الكِتاب العربى المُبين لايـــرى فى اختـــلاف الألسنة مدعاة لتعصب أو انطواء..!!

* * *

وهذه الوحدة البشرية التى يقدمها ويهديـــها الإســـلام إلى الضمير الإنسانى، لا تقوم على خَواء.. ولا تستمدُّ بقاءها مـــن الأريحية الإنسانية، والنوايا الطيبة وحدها، بل تصـــل نفســها وقانونـــها بجذور الطبيعة الإنسانية كلها.. فحين ينادى الإسلام بالحب مثلا..فهو يعلم أن الحبَّ خـــلال التطبيـــق الإنســانى والنــزعات والغرائز، يشبه العلمية الحسابية..لا تظفـــر فيـــها بحاصل الجمع مثلا، إلا بعد أن نجرى عملية الجمع أولا.. فلكـــى نظفر بالمحبة، يجب أن نظفر قبلها بأشياء كثيرة.. هذه الأشياء التى يرتبط الحب بـــها ارتباط حاصل الجمـــع بالإرقـــام المجموعـــة نفسها.

أظنكم الآن تعجبون من إقحـــام الأســـلوب الريـــاضى والحساب فى شفافية الحب وألقه..

ولكن هذا، هو دَوْر محمد العظيم..

وهذه هى هديته إلى الضمير الإنسانى..

أن يُحـــوِّل كل القِيَـــم التى آمن بـــها وآمن بـــها إخوته الأنبياء من قبله ـ إلى قوانين ثابته واضحة، لاتنحـــرف عنـــها معانيها ولا الأنفس الدائرة فى أفلاكها..!!

ونعود للمثال الذى كنا نضربُه وهو الحبُّ ..

قلنا: إننا لانظفر بالحب إلا بعد أن نظفر بمقدماته .

هذه المقدمات التى هى فى نفس الوقت نتـــائج لمقدمـــات أخرى .

فنحن نعرف أن الحب يؤلف بين الناس حقاً ..

ولكن متى ..؟

عندما يكون العدل قائماً ..

أما حين يختفى العدل فلا يؤلف بينهم يومئذ سوى الحِقْـــد والكراهية ..

ولكن هل العدل وحده مُناخ الحب ..؟

كلا ..

فالعدل قد يكون صارمًا، وقاسيًا، ومُتزمّتا.. وعندئذ يختفى التسامَح، وتختفى الرحمة، فيختفى الحب رغم وجود العدل ..

لقد كان المسيح يقظان لكل هذه الاعتبارات حين هتـــف بالحبْ وجعل حياته محَبَّة.

ولئن كانت أيامُه لم تطل على الأرض حتى تبلــغ دعوتــه مَدَاها؛ فإن أخاه محمدًا ليواصِلُ التقدُّم فى خُطى ثابتـــة ووعـــى عظيم .

ليست النوايا الطيبة إذن ـ كمــا أسـلَفْنا ـ هـى الـتى يستودعها"محمد" الأخوة البشرية.. بل سيضع بذرتــها فى أغوار الطبيعة البشرية والطبيعة الاجتماعية معًا .

وسيهديه القرآن إلى الطريق ..

إن البشرية الراقية عند القرآن تتمثل فى : ـ

﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات..وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر﴾

فالحق، والصبر، هما معراج التفــوُّق الإنســانى، وقــانون العلاقات الإنسانية .

فالتواصى بالحق ـ يعنى احترام كل حقوق الإنسان.

والتواصى بالصبر ـ يعنى أداء الواجب وحَمْل كل تبعــات الرشْد ..

وتحت حقوق الإنسان يدعَم القرآن والإسلام كل الحقــوق من عدْل، ومساواة، وحرية، وسواها.

وتحت واجبات الإنسان، يَدْعَمُ القرآن والإســلام كــل

الواجبات من أمانة، وإتقان، واستقامة ، وسواها ..

بيد أن كل حق وكل واجب، يُشبه قطعة من النقــود ذات الوجهين.. فهو حق وواجب معًا ..

فالعدل مثلا حق من حقوق الناس ـ يجب أن ينالوه، وهــو فى نفس الوقت، واجب مِن واجباتهم، عليهم أن يُؤَدوه.

ونحن حين نريد أن نظفر بإخاء عالمى ومحبة صادقة، فإنـــه يجب أن يكون هناك تواصٍ عميم بالحقوق والواجبات جميعـــًا.. بالحق والصبر كليهما ..

وفى عالم كعالمنا، مُتعدد الشعوب، كثير الـــدول، مُفْعَـــم بالتناقضات، لابد أن يكون لفضيلة الأخوة قانونـــها.

ولقد صنع الإسلام هذا .

فشَادَ العلاقات بين الأفراد على نَسق قانونى مُحكم .

وشاد العلاقات بين الدول والأمم علـــى نَســق قـــانونى مُحكم..

وفى كلا المجالين لم يُخرج الطبيعة الإنســـانية، والطبيعـــة الاجتماعية من دائرة ملاحظته واهتمامه ..

ففى المجال الفردى وضع قانون السلام والإخاء على هـــذا النحو .

﴿ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ، فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّه وَلِىٌّ حَمِيم﴾ .

فإذا عجز الإنسان عن هذا الأمثل والأفضل، وعجز عن مقاومة رغبته المشروعة فى القصاص.. عندئذ ..

﴿فعاقبوا بمثلِ ما عُوقبتم به ـ ولِئن صَبَرْتُم لَهُوَ خيرٌ للصابرين﴾

﴿وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها ـ فمن عَفَا وأصلَحَ فأجرُه على الله ﴾

ويقيم التكافُل بين الناس حتى يتآخوا ويتحابوا

فإذا كنت دائنا لمدين مرُهق ..

﴿فَنظرةٌ إلى مَيْسَرَة، وأنْ تصدَّقُوا خيرٌ لَكُم﴾..

وإذا كنت أميناً على وديعة أو حق ..

﴿فلْيؤدِّ الذى اؤْتُمِنَ أمانته﴾..

وعلى الإنسان أن يَهَبَ الناس حُبَّه وتواضعه وإكبارَه.

﴿لايسخر قومٌ من قومٍ﴾

* * *

﴿ولا تُصعِّر خدَّك للناس﴾

* * *

﴿وقولوا للناس حسنا﴾

* * *

﴿وإذا حُيِّيتُم بتحيَّة فحيُّوا بأحسنَ منها أو رُدُّوها﴾

* * *

﴿وإذا قُلتم فاعْدِلوُا . ولو كَانَ ذَا قُربَى﴾

* * *

﴿ولاتَبْخَسُوا النَّاسَ أشْيَاعَهُم﴾

* * *

﴿وإذا قلتم فاعدلوا، ولو كان ذا قربى﴾

﴿ولاتتمنَّوْا ما فضلَّ الله به بعضكُم على بَعْض﴾

﴿ولا تقربوا الفواحشَ، مَا ظَهَر منها وما بَطن﴾

* * *

﴿وعباد الرحمن الذين يَمشون علـــى الأرض هوْنـــا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا﴾

* * *

وأما مجال العلاقات الدولية فقد صاغ لها هـــى الأخـــرى قانونـــها الذى يحقق إخاء عالميًا وسلامًا دائمًا .

فالدول عادة تتنازع وتحترب حول مناطق النفوذ والـثروة.

فليبدأ القرآن بإعلان هذه الحقيقة .

﴿خلق لكم ما فى الأرض جميعا﴾

فلكى تكون الحياة للجميع، ينبغى أن تكون مصادر الحياة للجميع أيضا.

فإذا ما أخذت كل أمة نصيبها، ووضعتها مقاديرها فى مكانها من الأرض، وحظها من الرزق، فليحترم لكل ذى حق حقه ..

وعندئذ :

﴿لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾

والعدوان بكل أشكاله يجب أن يدحض ويشجب..

وإذا كان عدوانا مسلحا، يستهدف قتل النفس وتخريب الحياة، فيجب أن يقاوم..

وأسلوب مقاومته ينتظم المراحل التالية:

أولا ـ يطلب من المعتدين أن يكفوا عن عدوانهم، ويؤثروا تعايشا سلميا صادقا.

﴿لكم دينكم، ولى دين﴾

* * *

﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت، ولا تتبع أهواءهم﴾..

﴿وقل آمنت بما أنــزل الله من كتاب، وأُمِــرت لأعــدل بينكم..

﴿الله ربنا وربكم .. لنا أعمالنا ولكم أعمالكم.. لاحُجَّــة بيننا وبينكم.. الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾

ثانيا - فإن أصرَّ المعتدون على عدوانــهم المسلَّح فعندئذ:

﴿أُذِنَ للذين يُقاتَلون، بأنــهم ظُلموا، وإن الله على نصرهم لقدير﴾..

﴿الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق﴾

ثالثا - فإذا فاء المعتدى إلى رُشـــده وأعلــن رغبتــه فى الانسحاب أو الصلح.. وجب أن يُجاب إلى رغبته المسالمة حــتى لو يكون مخادعا..

﴿وإن جَنَحُوا للسَّلْم فَاجْنَحْ لَهَا وتوكَّلْ عَلى الله إِنَّهُ هــــو السميعُ العليمُ..

﴿وإن يُريدُوا أن يَخْدَعُوك فإن حسبَك الله، هو الَّذِى أيدَك بنصره وبالمؤمنينَ﴾

* * *

وهكذا يعلم القرآن رسوله، إذا دعوك للسلام فبـــاكرْهم إليه، حتى لو أرادوا بذلك خداعَك، لأن واجبك ألا تضيع فرصة

السلام مهما تكن هذه الفرصة وَهْنانه ومهما يكن الشكّ فى طبيعتها..وبإيثارك السلام، وحفظ الدم المسفوك، فإن الله سيقيك شرّ خداعهم إذا أرادوا أن يخدعوك ..

رابعًا ـ إذا عادوا للقتال، فقاتل، ولكن ليكن قتالك دفاعًا، لا تبتغى به أيًا من أغراض الحياة، ولَيكن موجها ضد الباغى عليك وحده .

﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولاتعتدوا﴾

* * *

خامسًا ـ وأما المحايدون فاحترم حيادهم، حتى لو يكونوا من نفس القوم الذين يهاجمونك ويقاتلونك .

﴿..حَصِرَت صُدُورهُم أن يُقاتِلوكم أو يُقاتلوا قومَهم، ولو شاء الله لَسلَّطَهُم عَلَيْكُم فَلقَاتَلوكُم، فإن اعْتزَلُوكُم، فلم يقاتلوكم وألْقوْا إليكُمُ السّلَم فما جَعَل الله لكُمْ عَلَيهم سَبِيلاَ﴾

* * *

أما الدول الصديقة، فالقرآن يدعو الرسول إلى توثيق العلاقات بها، مهما يكن اختلاف العقائد والدين..

﴿لاينهاكُمُ الله عن الذّين لم يقاتِلوكم فى الدِّينِ و لم يخرجُوكُمْ مِنَ دياركم أن تبرُّوهم وتقسطوا إلِيهمْ إنَّ الله يُحبُّ

المقسِطينَ﴾

* * *

وأما الآخَرُون الذين ليسوا أصدقاء مســـالمين ولا أعـــداء مهاجمين.. وإنما هم يسطون ألسنتهم بالسوء ويديرون حربـــاً باردة، ويعبِّرون عن عدائهم بوسائل لاتبلغ حد الهجوم المســـلح فموقف المؤمنين منهم يتمثل فى هذه الآية.

﴿يا أيُّها الذِّين آمنوا، لاتتخِذُوا عَدوى وعدوكم أولياء﴾

وتكشف آية أخرى عن صفتهم فتقول:

﴿لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هُزوا ولَعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾

حتى حين يدعوهم لتجنُّب الذين يسخرون منهم ويُؤلبّـــون ألسنتهم عليهم، يأمرهم أن يكون هذا التجنُّب فى غـــير بغـــى يأمرهم أن يتجنبوهم فى رفق وعدْل وتقوى :

﴿واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾

* * *

وفى التطبيق العملى، نجد الرسول محمداً قد عـــاش هـــذه الآيات..

نجده قد بذل من ذات نفسه فى سبيل الحُب والسلام ماينوء

بحمله بشَر.

فلقد لبث فى مكة ثلاث عشرة سنة كاملة، يلاقــــى كــل صنوف الأذى والاضطهاد والسخرية وهو لايزيد عن أن يقول:

"اللهم اغفر لقومى، فإنـــهم لايعلمون" .

لم يكن ذلك ضعفا.. فإن الضعيف مهما يكن ضعفه، قادر على أن يلطم خصمه أحيانا، أو يكيد له، أو يثور عليـــه أمــا الرسول، فخلال ثلاث عشرة سنة، لم يلطم إنسانًا لطمـــة، و لم يحمل لإنسان ضغْنا.. بل كان يبدو، وكأنه يستمتع بأذى قومــه وخُصومه..

وحين افتقد ليومين أو ثلاثة أيام، ذلك الرجل الذى اعتــاد أن يلوث باب داره كل صباح بروث البــهائم ..

حين افتقده الرسول، وعجب كيف مَضى يومان لم يقترف فيهما فَعْلَته، سأل عنه، فلما علم أن المرض أقعده.. خـــفّ إلى داره ليعوده وليدعوا له بالعافية ..!!

ثلاثة عشر عامًا كاملة يقول للذين يشبعون أذى وعدوانا.

﴿لكمُ دينكُم ولىَ دين﴾ ..!!

وبعد هجرته وأصحابه إلى المدينة، وبعد الحديبية حين بــدا أن قريشا تريد أن تجنح للسلام.. قبل كل شروطها مع فداحــة

هذه الشروط فداحة جعلت المسلمين يضجُّون لقبولها ..

فَعَل الرسول ذلك لأنه يريد السلام.

وحين أحاطت به وبدينه وبأصحابه المؤامرات المدججـــة بالسلاح والغدر، ولم يعد أمامه إلا أحد طريقين ـ المقاومة.. أو الإستسلام لقُوى لاضمير لها.. اختار المقاومة، لأن واجبه يفرض عليه اختيارها .

وعندئذ رسم لنفسه ولأصحابه حـــدود المعركـــة، فـــهى لاتجاوز تلك الأيدى المنقضة بالسلاح من الغزاة الرجال ..

أما ماوراء ذلك، فقد زجر النبى فى حَسْم عـــن أن تقتـــل امرأة، أو طفل، أو شيخ ..

ونهى عن أن يحرق نخل، أو زرع، أو يهدم بيت..

* * *

هكذا فى إيجاز تلقّى الضمير الإنسانى من القرآن والإســـلام هذه الوثيقة فى قضية الإخاء الإنسانى.. والعلاقات الدولية .

وإنها لتَتلخص فى هذا المبدأ:

(للناس جميعهم السلام، ولاعدوان إلا على الظالمين)

* * *

أما الحقيقة الثالثة، وهى أن"الخير" هو غرض الحياة ومنـــاط

مسئولية الإنسان.. فإن"محمدًا" بـهذا يرفع مستوى الحياة الإنسانية كلها إلى كمالِها الميْسور والمَقْدور.

وهو لا يجامل الحياة ولا الإنسان بـهذا، بل يحدد لهما طبيعتهما وغرض وجودهما .

والخير لديه إيجابى دائما.. وهو قَرين الإيمان، فالقرآن دائمًا يذكر الإيمان مقرونًا بالعمل الصالح .

﴿إن الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات، أولئك هُم خير البَرِيَّة﴾..

والقرآن يخاطب الرسول نفسه قائلا:

﴿فلذلك فادْعُ واستَقم كما أمرت﴾

فالخير الذى يُدعى الناس إلى أن يتباروْا فى إحراز حظوظه الوافية إذْ يقول:

﴿فاستَبِقُوا الخيرات﴾

هذا الخير يعنى الاستقامة على الجادّة، وجَعْل تبعات الوجود فى ذِمَّة .

وللخير أيضًا قانونه ..

وإذا كانت أولى تبعات الوجود أن يؤمن برب هذا الوجود وخالقه، فإن هذا الإيمان يقتضيك أن تعبد الله..

وعبادة الله فى التحليل النهائى لاتعنى أكثر من إسداء الخير لنفسك. أجل لنفسك أنت..

فالله ـ بداهةً ـ لا ينتفع بصلوات الناس حين يصلون، ولا بصدقهم حين يصدقون، ولا بأمانتهم حين يكونون أمناء، ولابوفائهم وسخائهم حين يكونون أوفياء، أسخياء.

إنما ينتفع بهذا ذووه.. إذْ يزكُّون بكل هذه الشعائر والفضائل أنفسهم، ويُنَمُّون كمالهم الإنسانى، ويؤمنون مصايرهم.

والصلاة ـ مثلا ـ ليست سوى لحظات أمْن وسكينة، تتجدد خلالها وتنمو علاقة الإنسان بأعظم قُوى الوجود وخيرها ـ الله رب العالمين .

وشعائر الدين وأخلاقياته، ليست إلا تدريباً لقُوى النفس والروح، وزاداً لاغنى عنه للنفس وللروح .

وإن لكل مجتمع أخلاقياته التى يرعاها العرف ويحميها القانون .

بيد أن المَزِيَّة العظمى لربط الخير والفضيلة بالإيمان تتمثّل فى أن هذا الربط يجعل الفضيلة ذاتية.. يجعلها جزءًا من نفس صاحبها وحياته، لايستغنى عنها إلا كما يستغنى عن عضو من

أعضاء جسمه ..

أما ربطها بقانون العقوبات، فإنه يجعلها فضيلة اجتماعية. قد يرتبط الانسان بها على كره ..

أجَل.. إن ربط الفضيلة بالله.. يجعلنا نَعيشها..

أما ربطها بالقانون ، فيجعلنا نُعايِشُها..

والخير عند الرسول هو وظيفة الإنسان ووظيفة الحياة معا..

ومن ثم فليس هناك أية قوة تستطيع أن تجعل الإنسان غير مُهيَأ لممارسته .

فأفدح خطايا الأرض لاتسلُب الإنسان خيريته إلا لحظة ارتكابها أو إبَّان إدْمانها ..

أما بعد أن يأسف ويعتذر إلى الله،ويعقد العزم على مَتاب.

﴿فأولئك يُبدِّلُ اللهُ سيئاتهم حَسَنات﴾

* * *

﴿فمن تاب مِن بعدِ ظُلّمِهِ وأَصْلَحَ فإنَّ اللهَ يتوبُ عَلَيه﴾

* * *

﴿واللهُ يُريدُ أنّ يَتُوبَ عَليكم﴾

* * *

والخير بمفهومه هذا.. أى الاستقامة والعمل الصالح

وحمل مسئولية الوجود، يبقى إذا نُحِّى عنه الرياء والمُقَايضة.

ومن ثَمّ قدَّس الإسلام الإخلاص، قائلا:

﴿فاعبد الله مخلصًا له الدين﴾

﴿يُريدونَ وجهَ اللهِ، وأولئك هُمُ المُفلِحُون﴾

* * *

﴿ولا تكونوا كالذينَ خرجُوا من ديارِهم بَطَـــراً ورِئـــاءَ النَّاسْ﴾

* * *

والقرآن حين يقول :

﴿فاستِبقُوا الخيراتِ، إلى الله مَرجعُكُم جميعاً﴾

إنما يضع مَثوبَة الخَير فى أعلى مقام.. فمهما يظفر الخـــيِّرون من ثواب ونجاح فى الدنيا؛ فإن ثوابـــهم عند الله أوفى وأعظم..

ومسئولياتنا عن الحياة الدنيا مرتبطة بمصيرنــــا فى الحيـــاة الآخرة ـــ هكذا يقرر القرآن.

إذن هناك خلود يؤمِن به الإسلام... وإذا كان الضمــــير الإنسانى قد استشرق الخلود منذ أيامه الأولى، فـــإن الإســـلام يعرض قضية الخلود، وعقيدة البعث والحياة الأخرى عرضـــــاً سديدًا .

إنه يراها ركنًا من أركان الإيمان.. ولقد أجْــرى القــرآن حواراً باهراً مع منكرى البعث والمؤمنين باستحالته.. فالله: ـ

﴿يبدأ الخلق ثم يُعيدُه، وهُو أهوَن عليه﴾.

لو أرَينا بذرة"مانجو" لمخلوق، لم ير الأشــجار قــط ولا يعرف عنها شيئاً وقلنا له: إن هذه القطعة المتخشبة الميتة ستُبعث شجرة وارفة مُترعة بالثمر، لصَعُب عليه تصديق ذلك..

ولقد كان الكافرون بالبعث يقفون موقف هذا المخلوق..وكـان بعضهم يأتى بعظام ميت ويقول: أيبعث الله هذا بعدمــا رَمّ..؟

وكان القرآن يجيبهم :أن: نَعَم .

﴿يُحييها الذى أنشأها أوّلَ مرةٍ﴾..!!!

ويسألهم الله سبحانه:

﴿أفعَيِينا بالخَلْقِ الأوّلِ..؟ بل هم فى لَبْسٍ من خَلْقٍ جديدٍ﴾!!

* * *

أما الحقيقة الرابعة، وهى أن الحياة شـــروق متجـــدد للمعرفـــة والعلم، فإن الاهتمام بـــها يبدأ مع أول أمر تلقاه الرسول مـــن ربه.

لقد كان : ـ اقرأ ..

كما كانت أول نعمة مَنّ بـــها الله على عباده مذكراً إيـــاهم

بجميل فضله هى :

﴿الذى عَلَّم بالقلمِ، علَّمَ الإنسانَ ما لم يَعْلَمْ﴾

ولطالما يُذكِّرُ القرآن الناس بأنه لا يستوى الذين يعلمـــون، والذين لايعلمون.. تمامًا. كما لاتستوى الظلمات والنور .

والعلم لدَى القرآن ليس تفوقاً عقليا فحسب.. بـــل هـــو تفوق أخلاقى أيضا ـ فأكثر الناس معرفة بالله وخشية له، هـــم العلماء .

﴿إنما يخشى اللهَ مِن عبادِه العلماءُ﴾

﴿وإنما يتذكرّ أولوا الألبابَ﴾

وبـــهذا أيضا يكشف القرآن عن حقيقة العلـــم الحـــق، والمعرفة القديمة.. فليس العلم مُجرَّد تحصيل، وليس العالم بمجـــرد لقب.. بل هما أن يكون نصيبك من الخير مساويا لحظِّك مـــن العلم أو يزيد.

والعلم دائمًا موضع تكريم الله واعتزاز الأنبياء..

﴿وكذلك يَحتبِيكَ ربك ويُعلمك من تأويل الأحاديث﴾

* * *

﴿وإنه لذو عِلْمٍ لِمَا علَّمناه﴾

﴿خلَق الإنسانَ، عَلَّمَه البيانَ﴾

﴿يتلو عليكم آياتنا، ويزكيكم، ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾

﴿ذلكما مما علمنى ربى﴾

* * *

ومن القرآن تلقى الضمير الإنسانى أذكى اللفتات واروعها نحو قيمة المعرفة ومداها .

فالقرآن يثير فى الضمير الإنسانى دائما أشواقه إلى الغيب.. وإلى الكون كله، ويقتحم بالعقل الإنسانى أسوار المجهول، ويقيم لوحدة الكون قاعدة من العقل والنظر والاستدلال.

لقد حاولت الفلسفة من قبل أن تعرف حقيقة الشمس، والقمر، والأرض ـ وتحدس فى هذا السبيل حدسها المشكور ..

لكن دينا، كل وظيفته كما يحسب الناس، أن يدعو لطاعة الله، ومكارم الأخلاق.. ما شأنه بالحديث عن طبيعة الكون وحقائقه.

إنه لعظيم حقا حين يدعو العقل الإنسانى إلى الغوص، والتحليق وراء المعرفة الكونية فى غير إجفال أو تهيب.

و لم يكن المهم يومذاك أن يتحدث القرآن عن تفاصيل هذه الحقائق .

إنما كان المهم أن يُعلن أن بحثها ليس محظورًا.. بل مطلوبًا.. وأن يشجع العقل على تَحدِّى الصمْت. والوجوم أمام الغيْـــب والكوْن.

وفى سبيل هذا عمد إلى الشمس والقمر والأرض، فحـدث الناس عنها حديثاً جديدًا .

فالشمس ليست كوكبًا ثابتًا كما يعتقد الناس بل هى:

﴿تجرى لِمُستقرٍ لها﴾

﴿تجرى لِمُستقرٍ لها﴾

﴿والقمرَ قدَّرنْاه منازِل﴾

﴿والسماء ذات البُروج﴾

﴿كلٌّ فى فلَك يَسبْحون﴾

والأرض ليست ثابتة فى مكانـــها ـ اقرأ هذه الآية:

﴿وترى الجبال تحسَبـــها جامدة وهى تمرُّ مَـــرَّ الســـحاب صُنْعَ اللهِ الذى أتْقَن كل شىء﴾

والسماوات ليست فراغًا، بل إن فى كواكبـــها لمخلوقـات كثيرة .

﴿ومن آياته خلْق السماوات والأرض، ومابثَّ فيهما مـــن دابةً وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾

وفى تعبير القرآن عن السماوات بصيغة الجمع.. مقابل كوكب الأرض بصيغة المفرد ما يشير إلى أن المعنىَّ بالسماوات هنا تلك الكواكب السابحة فى الفضاء الأعلى.

ما معنى ذلك؟ إن ذلك لا يعنى بحال أن القرآن كتاب فلك..ومن ثَمَّ فهو لم يسهب فى هذا المجال.

وإنما معناه أن الأرض على اتساعها ورغم غزارة أسرارها، ليست المجال الوحيد لتطلع الإنسان ونشاط عقله وتفكيره.. بل الكون كله مجال هذا التطلع وهذا التفكير.

﴿إن فى خلق السماوات والأرض، واختلافِ الليل والنهار لآياتٍ لأولى الألباب﴾.

وعلى الضمير الإنسانى أن يستشرف ..

وعلى العقل الإنسانى أن يفكر ..

عليهما معاً أن يتهيآ لرحلة لاتنتهى إلا حيث يجدان نفسيهما أمام المطْلق الأعظم وجها لوجه.

﴿وأنَّ إلى ربك المنْتَهى﴾

إن الوعى الدينى لقضية المعرفة يبلغ فى القرآن وعند الرسول "محمد عليه السلام" أوْجا فريداً .

ولن نجد دينا أهاب بالعقل وبكل قُوى الذكاء الإنسانى

لكى تأخذ دَوْرها القيادىّ فى موكب الحياة وقافلة البشر،مثلما فعل القرآن ومثلما فعل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

لقد أعلن القرآن أن محمداً خاتم الأنبياء .

لقد أُرسِيت بصورة نهائية قواعد الخير الأسمى والارتقاء الروحى للجنس البشرى كله.

ولقد قال الوحى وقالت النبوَّة كلمتهما الهادية والفاصلة فى كل القِيم التى تُشكل معراج البشرية إلى كمالها المقَدور.

فليتقدم العقل، وليحمل المشعل الذى هيأه له الله، وليذهب ذات اليمين وذات الشمال، باحثاً وفاحصاً منشئاً.

ولكى يتهيأ الضمير الإنسانى لحمل المسئولية كاملة فقد مضى الإسلام يزكى ويدعَم حرية الضمير ..

وفى وضوح كامل بدأ هذا الدَّعْم بإعلانه أن حرية الضمير ليست منحة بل حقا.. وليست نافِلَةً بل ضرورة .

أَجل، فحين أَعلن الإسلام مسئولية الإنسان عن أعماله أعلن فى نفس الوقت ولنفس السبب، حرية ضميره.. إذ أن المسئولية لاتكون إلا حيث يستطيع الإنسان أن يختار.

صحيح أن الإسلام تحدَّث عن القدر الإلهى، وجعل الإيمان به محتوما .

ولكن القدر فى مفهومه السوىّ، لايعنى إلغـــاء الاختيـــار الإنسانى .

فالقدَر أولا، وقبل كل شىء، إنما يتمثّل فى تلك القوانـــين والسُّنن التى جعلها الله قِياما للكون وللحياة.

ومن هذه القوانين:

﴿ولاتُجزون إلا ماكنتم تعملون﴾

وإنه فى الوقت الذى رفع القرآن بيمينه ـ الإيمان بإرادة الله المطلقة، رفع بيمينه الأخرى ـ وكلتا يديـــه يمـــين ـ الإيمـــان بمسئولية الإنسان.

﴿كُلُّ امرئ بما كَسَب رَهين﴾

﴿ولِكُلٍّ درجاتٌ مِمّا عمِلوا﴾

﴿وأنْ ليس للإنسان إلاّ ما سعَى﴾

وإنه لسدادٌ عظيم أن يعمل الناس فى ظل إيمان بقـــدَر الله، وحقهم فى الإرادة والاختيار.

ـ فحتّى لايُمارسوا اختيارهم فى فوضى وجهالة، يذكرهـــم القرآن بأن الله قد جعل لكل شىء قدرًا، وأن كل خروج علـــى السُّنَن التى وضعها الله، ليس إلا انـــزلاقا نحو الهاوية .

ـ وحتى لا يُمارسوا اختيارهم فى غرور وجبروت يذكرهـــم

بأن لله قَدَراً يستطيع أن يكبح جماح كل غرور وكل جَبروت.

ـ وحتى لايجبُنوا عن مُمارسة اختيارهم، يخبرهم أن سعيهم في الحياة مقدور.. إنه قدَر، وهل هناك أقوى من القدَر.. فليتقدم كل إنسان إذن في طريق حياته يكشف خبْأهُ ويفُضُّ مجهوله وهو في مثل قوة القدر.. إن القرآن يقول:

﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾

فإذا كانت مقاديرنا تنتظرنا على النّسَق الذى أرادته إرادة الله البالغة، فلما نمضى نحو هذه المقادير على وجَل.. وهل أُخْفِيت عن الناس مقادير حياتهم إلا لكى يمارسوا ذكاءهم واختيارهم على أوسع نطاق وأشْجعِه ..؟

لقد ترك الله للإنسان مجال نفوذ رحيب يُمارس فيه اختياره الحر الرشيد . وصان من أجل هذا حرية ضميره، فأعلن القرآن أنه :ـ

﴿لا إكراه فى الدين.. قد تبيَّن الرُّشْد من الغَيّ﴾

وكان دائب الحرص على أن يبين وظيفة المرسلين، ويُلْزِمها بأن تدْخل فى كل حسابها، حرية الضمير ومن ثَمَّ، فالرسول ـ كل رسول ـ ليس إلا مُبلِّغا كلمة الله، ومبينًا طريق الرُّشد .

﴿وما أَرْسَلنا من رسولٍ إلاَّ بلسانِ قومِه لِيُبَيِّنَ لهم﴾ فاللسان

والقول والكلمة ـ هى أداة البلاغ، ووسيلة الإقناع أما بعد هذا،

فـ ﴿لست عليهم بمسيطر﴾

* * *

﴿إن عليك إلا البلاغ﴾

* * *

﴿وما أنت عليهم بجبار﴾

* * *

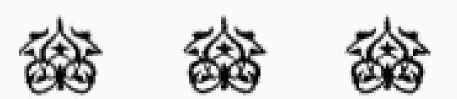
وبعد ..

فهكذا تلقى الضمير الإنسانى آخر كلمات الدين.. الدين كله منذ أول رسول، حتى آخر المرسلين.. ولقد كان لكل رسول منهجه التشريعى الذى يلائم بيئته وعصره. ومجتمعه، لكن الأديان جميعا ليس بينها من تفاوت فى إدراك جوهر الخير، هذا الجوهر الذى تمثل فى القيم العليا التى أجمع عليها الأنبياء، والمصلحون، والبشرية كلها، لقد أفرغ الدين على هذه القيم نورا لايخبو أبدا .

* * *

وذات يوم، رحل محمد عليه السلام عن دنيا الناس، بعد أن رفع ـ عاليا ـ مشعل الهدى والخير، وبعد أن نادى الضمير

والعقل ليأخذا مكانـــهما فى قيادة القافلة الإنسانية، وليحمـــلا المسئولية كلها، فى رعاية الله، وفى هدى كلماته ..



## الفصل الثالث

# فى عصر العَقـــــل

إن كلمة "العقل"هنا، لا تعنى الضدَّ أو النقيـــض لكلمـــة "الإيمان" ..

و"عصر العقل" الذى نتتبَّعُ رحلة الضمير خلاله، لايعـــنى العصر الذى انفرد وحده، ودون بقية العصور بـــاحترام العقـــل وتحكيمه، كما أنه لايعنى العصر الذى خلا من الإيمان ففى كـــل العصور كان الإيمان والعقل يعملان معاً تارة، ومنفردين تـــارة أخرى، والحضارات الشامخة التى قامت فى المـــاضى البعيـــد فى مصر، وآشور، وبابل، والفرس، والصين والهنـــد، وفى ســـبأ.. كانت الثمار الحلوة لتعاون الإيمان والعقل فى بناء الحياة ..

عصر العقل إذن ـ كما نعنيه ـ هو العصر الذى ســـادت فيه المعرفة التجريبية، العصر الذى يستمدُّ أحكامه من التجربـــة الموضوعية، والذى اقتحم بملاحظاته ومُختبراته مناطق المجـــهول

وكشف أسراره، والذى جعل هدفه، سيطرة الإنسان على الطبيعة وعلى شئون عالَمه.

ولقد نادى الضميرُ العقل إلى مكان القيادة حين أحس حاجة الإنسانية إلى كلمته وحِذْقه. وإذا كان الضمير الإنسانى جديد البصَر بالمقادير الجديدة لبنى الإنسان، فقد أدرك فى الوقت المناسب حاجة البشرية لكل قُوى العقل وكل إنتاجه.

لقد رأينا كيف تَلقَّى الضمير من الإسلام ورسوله، هذا الدرس.. درس الإهابة بالعقل الإنسانى كى ينظر فى ملكوت السماوات والأرض، كى يتقدم ليحمل مسئوليته عن حماية القِيَم العُلْيا ومسئوليته عن بناء الحياة .

وعصر العقل بمفهومه الواسع، لم يبدأ فى أوربا، ولا فى عصر النهضة.. إنما بدأ فى ظِلّ الحضارة الإسلامية بدءًا من القرن السابع الميلادى. بدأ، يوم شرع علماء الإسلام ومفكروه، يُحكّمون العقل حتى فى مقدساتهم الدينية .

ثم يوم جاء جابر بن حيان، والخوارزمى، والكندى وثابت بن قُرّة، والرازى.. يضعون أسس علوم الرياضة، والفلك، والكيمياء، والجبر، والطب .

يوم كان" ابن الهيثم" ينشئ، ويضع أُسُس علم الضوء

الحديث كله. أيام كان"الفاربى" يشيد"مدينته الفاضلة".. أيــــام كان المعتزلة يحكمون العقل فى النصـــوص المنـــــزلة.. وكـــان "إخوان الصفا" يُوجهون حركة العقل فى قوة نحو طبائع الأشياء. ويلخصون منهجهم العلمى فى وجوب معرفة كل شىء عن كـل شىء .

فعن حقيقة الشىء . . . يسألون : ما هو ..؟

وعن مقـــــداره . . . يسألون : كم هو ..؟

وعن صفتـــــه . . . يسألون : كيف هو..؟

وعن نِسبيَّتـــه . . . يسألون : أى شئ هو ..؟

وعن مكانه أو درجته. . . يسألون: أين هو ..؟

وعن زمانـــه . . . يسألون : متى هو ..؟

وعن عِلّتـــه . . . يسألون : لِمَ هو ..؟

وعن تعريفـــه . . . يسألون : من هو ..؟

وأيام كان"ابن سينا" يشيد فلسفته على أساس من تقديـس العقل، واعتباره أعلى قوى النفس، ويناقس"أرسطو" وفلاســـفة الأغريق جميعا مُناقشة النِّد للنِّد، قائلا:

"إن لنا عقولا كعقولهم" ..!!

ويعلن أن القَدَر الإلهى لايعنى التدخل فى الحيـــاة العاديـــة

للناس، إنما يعنى سلطان القوانين الكونية التى سنّها الخالق العظيم وجريانها فى نواميسها.. ويُحيى إرادة الإنسان وعقله، وينادى بأن مصير البشر رهن بما تستطيع الإرادة والعقل أداءه فى حرية واختيار فيقول :

● ـ"حسبنا ما كُتب من شروح لمذاهب القدماء، وقد آن أن تكون لنا فلسفتنا ورأينا"

وأيام كان"ابن باجَه" يحرر الفلسفة من سيطرة الجدل الأرسطى، ويأخذ بزمامها من التفكير المثالى والخيالى، إلى التفكير العلمى.. وأيام كان هناك"ابن رشد" يصحح أغلاط الفكر، وينمى أرصدته ويعلن أن الحقيقة مُقدسة وأن التقليد عصا العميان، وأن العقل مُعلّم وإمام .

وأيام كان"ابن النفيس" يكشف الدورة الدموية لأول مرة..و"وابن البيطار" يضع أسس علوم النبات..و"البيرونى" يذهل الدنيا بعقليته التى لايكاد التاريخ يعرف لها نظيراً ..

أيامئذ، بدأ عصر العقل.. وكانت البداية رائعة. ومن ثم فقد انتشر نورها.. وظل عصر العقل يتكون وينمو حتى جاءت المرحلة التى بلغ فيها جيشانه العظيم محدثاً فى الحياة الإنسانية تلك التغيرات الكبرى وكان المسرح فى هذه المرحلة ـــ أوربا ..

و لم يلبث العقل إلا قليلا حتى تحول إلى"عِلم" وصار عصـــر العقل، عصر العلم، وعَصْر الإنسان أيضا..

وفى هذا العصر سيلاقى الضمير الإنسانى موجات عنيدة من التحدى والتمرد.. بيد أنه لن يكون منها جَزِعاً ولا بـــها يائسا. بل سيحتفظ بـــهدوئه وتفاؤله، مؤمنا بأن العقل الذى من حقـه أن يعرف كل شيء، سيعرف الحق ويهتدى إليه .

وفى عصر العقل هذا ـــ عصر التغيرات الكبرى، ســـــيبلغ الضمير الإنسانى أمْره، وسيكون العقل أداته فى الإجهاز علـــــى الكثير من عوائق التخلُّف البشرى .

ويبدأ عصر العقل فى أوربا ثوَرَاته وجيشانَه ضدَّ الدين.

أو بتعبير أصحَ ضِد التدَيُّن، سيما المسيحىِّ مِنه..

ولقد كان موقفه ذلك ردّ ـ فعل يكاد يكـــون محتومـــا ـ للقرون الكالحة التى انحرفت فيها الكنيسة عن رسالتها، وجعلـت من نفسها"مطرقة" تحطم فى وحشية كل ماهو جميل فى النـــاس وفى الحياة ..

وحسبـــها من خطاياها يومذاك، محاكم التفيش ـ هـــذه المحاكم التى بدأت ضدَّ مسلمى أسبانيا ويَهودها، ثم مـــالبثت أن أدارت وجهها الباسِر وعدوانـــها البشع نحو المسيحيين أنفسهم،

فراحت تقتلهم، وتدفنهم أحياء زاعمة فى سخرية ماجنه، أنها لاتقتلهم وإنما تخلّص أرواحهم ....!!

ولقد تعذّب "الضمير الانسانى" من تلك المشاهد عذاباً أليما.. ولكنه كعادته اتخذ من بلائها مزية عظمى، فصنع من كوارثها آخر مسمار فى نعش "التعصب المنظم" ..

لقد "كان التدين" شيئاً مختلفاً عن "الدين".. وعادت الطقوس والأشكال تأخذ مكان الروح والجوهر .

ولما كانَ الشك من وسائل العقل، فقد اتجه الشّك أول ما اتجه إلى تلك القوة التى كانت تسيطر على كافة شئون الإنسان وهى قوة رجال الدين وسلطانهم.. وحُمِّلَ الدين فى ضوضاء المعركة أوزار المحترفين الذين يأكلون به، وأوزار الخرافات التى تطفّلت عليه. ولكن الضمير كان رابط الجأش مطمئناً إلى أن نَقْعَ المعركة سيتبدد آخر الأمر، آخذا معه الباطل، وستبقى قضية الإيمان ثابتة ظافرة هادية .

فالشك المستنير لاينال من الإيمان بالله منالا.. ويومئذ كان الفيلسوف الذى جعل شعار العقل والمعرفة "شُكَّ لتعرف".. كان هذا الفيلسوف ـ ديكارت ـ نفسه، يقول أيضا:

ـ "وأجد فى نفسى فكرة عن الله كجوهر لاحدود له..

"خالدٍ ثابتٍ لا يتغير.. عالم بكل شيء.. به خلقت أنا وسائر الأشياء...

"فهل من المعقول أن تنبثق هذه الصفات العظمى الفائقة من الطبيعة الناقصة المحدودة التي أراها فيّ..؟

"فهل من المعقول أن تنبثق هذه الصفات العظمى الفائقة من الطبيعة الناقصة المحدودة التي أراها فيّ..؟

"لقد عَبَرْت الثغرة القائمة بين نفسي، والحقيقة الخارجة عنها، وينبغي أن أُسَلم بوجود الله الكائن الوحيد الأعظم" ..

* * *

إن البشرية في صحوتها، تريد أن تنحي عنها كل ما يقيد روحها، وتريد أن تختار بنفسها شروط حياتها.. أفيضير ذلك الدينَ الحقَّ في شيء..؟؟ كلا.. وإنما يضير السلطات المنتفعة بالدين، ومن ثم نراها تُطارد العقل بتهمة المروق والإلحاد.. ثم بتهمة هدم التقاليد؛ ذلك أنهم يريدون من العقل أن يلبس مُسوحهم، ويتبنى أهواءهم.. يريدون منه أن يتنازل عن كل شكُوكه، واستفساراته، ويلقي بكل ما في جعبته من علامات الاستفهام في قاع المحيط .

ولكن العقل يرفض هذا؛ ولا يتخلَّى عن الشك أبدًا، فهل

يجىء اليقين إلا من الشك ..؟

هل اكتشف"سقراط" يقينه إلا حين أخذه الشك فى خرافات قومه ..؟

هل وجد"المسيح" يقينه إلا بعد أن أخذه الشك فى أكاذيب كهنة أورشليم وما حولها ..؟؟

هل وجد"الرسول" يقينه إلا بعد أن أخذه الشك فى ضلال عُبّاد الأصنام فى مكّة ..؟

إن انعدام الشك الذكّى ليس سِمَةَ الهدى بقدر ما هو علاقة انحطاط قُوى الروح والعقل.. وإن عصر العقل يعنى"عصر البرهان".. وكل حقيقة لها برهان لاضيْر عليها من الشك والتساؤل. والضمير الإنسانى يحسُّ المغانم الجليلة التى ستُتاح للبشر حين يتحرر تفكيرهم، وخيالهم، وإرادالهم، وحقهم فى التجربة والاختيار..ولا سبيل لهذا التحرُّر مادام التعصُّب قائماً..

والتعصب لايرحَل، إلا حين يَصير الشك الذكىُّ مُباحاً مشروعاً. وليس فى هذا ما يضير الدين الحق، بل فيه مايدْعَمُه، ذلك أنه إذا كانت مهمة عصر العقل أن يُهيئ الإنسان ليُحْكِم سيطرته على الحياة والطبيعة، فبهذا تقَرُّ عين الدين وينشرح قلب الإيمان .

وإذا كان الوحى قد سار بالعقل طويلا، فقد كان بهذا يُعِدُّه للسير بعد ذلك وحده مُزوّداً بالْباقيات الصالحات التى غرسَها الوحى فى الضمير. أما عرْقَلَة العقل، وشدّ خُطاه بتلك التفسيرات المثبطة فأمر أدرك العقل والضمير أنه مُجاف الدين، ومن ثم لم يربطا مصيرهما به ..

لقد كان "جاليليو" صادقًا وهو يقول عام ١٦١٣ فى رسالته إلى الأب "كاستيلى" أستاذ الرياضيات فى "بيزا" :

ـ "إن معرفة الله، واكتشاف الطبيعة ممكنان عن طريق العقل والرياضيات ..

"ولهذا يجب تفسير الكتب المقدسة بالأسلوب الذى لايجعلها مُناقضة للنتائج التى تأكدنا منها، وتثبَّتنا من صحتها"

وأدرك "سبينوزا" وَجْه الصواب وهو يقول :

ـ "إن الخير الأعظم فى كشف العلاقات التى تربط العقل بالطبيعة كلها.. فكلما ازداد العقل معرفة، كان فهمه لغاياته وغايات الطبيعة أفضل.. ومن ثَمَّ يصير أقدر على تحرير نفسه من الأشياء التى فقدَت جدْواها ـ تلك هى الطريقة كلها "..

* * *

وكَما طُورِد العقل بتهمة الإلحاد والمروق، وطُورِد كذلك

بتهمة هدم التقاليد الموروثة الفاضلة ..

تُرى، من الذى جعلها تقاليد، وفاضلة..؟؟ أليس هو الضمير والعقل ..؟!

ثم ما هى التقاليد..؟ أليست أسلوب الحياة الذى يَصنعه الناس لأنفسهم خلال انهماكهم جميعاً فى كدْحِهم من أجل العيش، والتقدم والمعرفة ..؟؟

كيف إذن تأخذ صورة واحدة جامدة لاتتغير ، ولا تتطوَّر ...؟؟!!

ألا إنه كم من تقليد فاضل، لم يصر تقليداً، ولا فاضلا إلا بعد أن أخذ مكانَ تقليد آخر سَبقه، كان هو الآخر فاضلا ..!!

سيشك العقل إذن فى كل ما يحلو له أن يتعرف إليه بشكوكه .. وصحيح أنه سيَجْنَحُ بشكوكه أحياناً للمبالَغة المُسْرفة والتطرف الوعر.. ولكن، رغم هذا لَن تقدر تِلالُ شكوكه على أن تطمر تحت ترابها حقيقة واحدة.

بل ستخرج الحقائق من هذا الاختيار العسير أكثر ألقاً، وأشدَّ تماسُكا .

وصحيح أن عصر العقل سيقترف نفس الخطأ الذى جاء ليُصلحه.. فسوف نراه يُغالى فى تقدير منهجه وأدواته.. سنراه

يُسرف فى إصدار أحكام نـهائية بينما هو يستمدُّ بصيرته مــن عدم ارتياحه للأحكام النهائية ..!!

سنراه يتورط، فيخلع"المُطْلَقات" على أشياء نسبيَّة، ويَمنـح "الدَّيْمومَة" لعمليات زمنية زائلة.. بيد أنه رغم هذا، ستَبقْى لـه مزيته التى ستحميه من هذا الخطأ وتردُّده عنه.. هذه المزيَّة المتمثّلة فى إيمانه بأن الذكاء الإنسانى هو الذى يأخذ على عاتقــه حـلَّ مشكلاتنا.. وهنا يردد ـ طاغور ـ إحدى أناشيد الضمير العذبـة المضيئة ..

ـ "... إن الكمال شيء وراء طاقتنا، إنه يعـنى النهايـة.. ونحن أبداً فى سفرنا الطويل نحاول الاقتراب من غاية تبتعد عنـا دوْماً.. إننا على كثرة ما معنا من معرفة وخبرة، لانعرف عـن أسرار الحياة إلاَّ النـزر اليَسير.."ومع هذا فإننا نملك القدرة على الإبداع والخلق، لأن فينا قبَساً من روح الله، الخلاق العظيم" .

* * *

وللذكاء خطره ..

ومن ثَمَّ فإن وضَع الزمام فى يده يزيد من التبعات الملْقـاة على الضمير، ويدعوه لمضاعفة يقظته وحراسته .

وفى عصر العقل، تعرضت العلاقات بين الضمير والعقـل

إلى توترات وأزمات كثيرة... بيد أنها فى النهاية كانت ولاتـــزال تنتهى إلى وفاق رائع ومكين .

إن فترة الجيشان المرتفع فى عصر العقل، كـــانت مظـــهرًا واضحاً لإرادة الضمير فى تغيير وجه الحياة تغييرًا تتحقـــق فيـــه وخلالَه كل المبادئ التى نادت عَبْر القـــرون بـــهذا التغيـــير، وصاغَتْ بعض نماذجه ..

من أجل هذا، سنرى الضمير الإنسانى يحوِّل تلك المبـــادئ والأحتياجات إلى قوات اجتماعية، وَحْدَات مقُاتلـــة تخـــوض المعارك لتُحرزَ انتصارات نهائية ضد قوى التخلف والبِلى .

وتدور محاولات الضمير حول المعيار الذى اختارَه ليطـــابق به بين الناس والحياة .

وكان هذا المعيار متمثلا فى الحرية، والعدل، لقـــد شـــهد عصر العقل هذا فى ضُحاه المحتـــدِم الجيَّـــاش... شـــهد جميـــع "الإنسانيات" التى أحرزها الوعى الإنسانى طـــوال الأحقـــاب والقرون، تنطلق فى مهرجان حافل فَتَنطَلق معها مقادير التطـــور وقواه من مكانـــها، وتملأ حياة البشر بتغاريد المستقبل الواعِد .

واتَخذَت هذه "الإنسانيات" من الحرية والعدل قاعدتـــها، ومنطقها وشريانـــها .

فباسم الحرية والعدل، ستهب الطلائع الظافرة لتتخلص من الإقطاع، ومن الاستعمار، ومن تجارة الرقيق ..

وباسم الحرية والعدل، ستقوم الثورات من أجل حقـــوق الإنسان .

وستقرر حرية الضمير، وحرية الإرادة، وحريـــة الفكـــر، وحرية الاختيار .

وستتوالى مَوْجات الجيشان الذكى الواعى، فتقاوم ســيطرة الاحتكار والثّراء غير المشروع، وتدفع الجماهــير الكادحــة إلى مستوى كدْحها وَحقّها، وتبزغ الديمقراطية حاملة معها مشــيئة الضمير فى تكريم الجمُوع الإنسانية بجعلـــها مصـــدر الحكـــم، وصانِعة الحياة .

ويصير احترام الشخصية البشـــرية وتقديـــس حقوقـــها وواجباها، هو جُماع الخير وذروة الفضيلة .

وسيكون للفلسفة بلاؤها العظيم، ودورها الجليل فى التعبير عن مشيئة الضمير وإنجاز مَهامّه .

لقد أعلنت الفلسفة أن الشئون الإنسانية كلها هى موضوع الفكر الإنسانى ومَجْلى نشاطه.. ومادام الفكر هو الأدَاة، وهـــو الوسيلة، فلا مَناص من أن تتوفر له الحرية الكافية لتكوين مادّته،

وإلقاء كلمته .

ولئن كان"كونفشيوس" قد قال قبل الميلاد بخمسمائة عام:

ـ"إنى لاأملك لك شيئاً، إذا كنت لاتستطيع أن تقول.. هذا رأيى"...، فإن الضمير فى عصر العقل خاصّة يجعل من هذه العبارة نهجاً مقدساً، وهكذا رأيناه يدفع كل حكمة العصر إلى دَعْم هذا الحق الجليل .

فليرفع "مونتين" صوته عالياً :

● ـ "علينا أن نفحص كل شىء، وألا نُدخل عقولنا شيئًا لمجرد أنه عُرفٌ مُقرر ..

"علينا ألا نعتنق مبادئ أرسطو، أو الرواقيين، أو الأبيقوريين دون أن نفحصها ونختار منها ..

"إن من يتبع الآخرين بغير هُدَى من تفكيره واقتناعه لايتبع شيئاً، ولا يعثر على شىء ..

"نحن لسنا رعايا مِلك، فدَعوا كل واحد منا يطالب بحريته..

"إن الصدق والمنطق حق لكل إنسان، وليسا مِلْكاً خالصاً لمن ينطق بهما لأول مرة. إنما هما مِلْك لكل من يَقدر عليهما..

"إن النحل تمتصُّ الشهد من هذه الزهرة ومــن تلــك، ثم تخرج من بطونــها شرابــها هى.. وشَهدها هى ..

"ألا وإنا لنجعل من عقــل الإنسان شيئًا خسيسًا وجبانــا إذا لم نسمح له بحرية الابتكار والإبداع"..!!!

* * *

وإذا كانت الإراء البنَّاءة المُضيئة لاتوجد على قارعــة الطريق، فلابد للبشرية أن تقرأ كثــيرًا، وتعــرف كثــيرًا فمسئولية البشر تجاه بناء حياتــهم، لا يضاهيــها ســوى مسئوليتهم تجاه تزويد عقولهم بالمعرفة الصحيحة .

وهنا يتحدث "برجسون" .

● ـ "يجب أن يبتدئ كل واحد منا كما بدأ الجنــس البشرى بذلك الطموح النبيل لمعرفة كل شيء.. فهنا علــى وجه التحديد يكمن الفارق بين الفكر والغريــزة... بــين الإنسان والحيوان ..

"إن الحيوان يستطيع أن يفعل شيئًا واحدًا بشكل يثــير إعجابنا، ولكنه لايستطيع أن يصنع شيئًا آخر سواه" .

* * *

أَجَلْ.. إن فقدان التنوُّع ليس مزيــة إلا لحيــاة الســوائم وحدها، لأن الغريزة ، لا العقل هى التى تقودها .

أما الإنسان، هذا الذى أعطاه الخالق الجليل عقلا لاتنتــهى عجائبه، فإنه مهما يجنح به التخصُّص إلى جانب من جوانــب المعرفة يظل قادراً على أن يُدير خواطره على كل شىء، ويصنـع بعقله المعجزات ..

وإذا كان عصر العقل هذا، لن يدعَ حجرًا مــن حجــارة الأرض حتى يعرف فصيلته وعمره فى التاريخ... وإذا كان لــن يدَع بحرا، ولا نــهرًا دون أن يعرف نوع أسماكه وطَحالِبــه.. وإذا كان لن يدَع الفضاء سرًّا مخبوءًا دون أن يعرف عدد نجومه، ويتعرَّف إلى سكان كواكبه... فإنه من باب أولى، لــن يـدع أفكاره وآراءه، وعقائده تُمْلَى عليه، ولن يدَع حقَّه فى تكويــن اقْتناعه، والبحث عن الحقيقة يخضع لأى تأثير.

وهكذا، وفى القرن السابع عشر، تصبح كلمات"ملتــون" على كل لسان .

● ـ أطلقوا رياح جميع العقائد والأفكار لتغْدُوَ على وجــه الأرض، ولتْكُن الحقيقة بينهما فى المعركة؛ فإننا إذا حظرنا لهــا، وتحكمنا فيها نرتكب إثماً ونصنع أذى كبيرًا .

"دعوها تتصارع مع الكذب.. فهل رأى أحدُكمُ الحقيقــة يوماً قد خسرت قضيتها فى صراع حُرٍّ مكشوف ..؟!

* * *

إن الضمير يُجنّد كل الذكاء يومذاك لكى يحرر الفكر مــن كل سيطرة ووصاية. لاسيَّما وصاية الكنيسة التى كان لها علــى العقل سلطان باطش.

إنه يرفع لواء حرية الفكر، وحرية القول، لأنه بهذا سيذهب الموكب البشرى إلى غايته البعيدة فى خَطْو ثابت ظافر.

وإنه ليريد ألاَّ يعتمد رأى مَّا على القَهر والتحدِّى؛ لأن كل فكرة وكل عقيدة تعتمد فى إثبات وجودها على القَهْر والإرْغام، فإنــها تحكُم على نفسها بأن حظها من العقل، ومن الصـــواب ضئيل، بل مفقود .

ثم إن حرية الضمير التى تتمثّل فى أن تكون هناك حُرُمــات مصُونة لحق الاختيار، وحق الاقتناع، هذه الحرية تَضْحى هَبـــاءً حين يكون ثَمَّت نُظم أو عقائد تُصِرُّ على أن تفـــرض نُفوذهـــا قسْرًا وإكراها .

وهكذا يجىء "جيفرسون" ليقول :

● ـ "عندما مَنَحَ الله آدم العقل، أعطاه الحرية ليختــار؛ لأن

العقل هو الاختيار.

إن الحقيقة والإدراك، ليستا سِلعتين تخضعان للاحتكار وتُوزَّعان بالبطاقات .

"ألا فأَعْطِنى جميع حرياتى غير منقوصة، ولكن أعطنى حرية الضمير أوّلا..

"ألاَ واعلموا أننى عاهدتُ الله الكبير على أن أعادى إلى الأبد كل صورة من صُوَر الاستبداد بعقول الناس وضمائرهم..!!"

* * *

ويرتفع صوت "فولتير"..

ـ "إن الذى يقول لك اليوم: اعتقد ما أعتقده، وإلاَّ لعنَك الله. سيقول لك غدا: اعتقد ما أعتقده؛ وإلاَّ قَتلْتُك .

ولَن يسودَ سلام على الأرض قبل أن يتعلّم البشرَ كيف يتسامحون، بعضهم تجاه بعض فى كل خلافاتهم السياسية، والفلسفية، والدينية "..!!!

* * *

لقد عبَّر عشرات من الفلاسفة والمفكرين فى تلك الأيام عن تصميم الضمير على أن يُنحِّى عن الإرادة الإنسانية والفكر

الإنسانى كل الضواغط التى تَحْتَبِس رُؤاها وتعتاق سيرها.

وأفضى ذلك إلى التصادم مع قُوى كثيرة كـــانت تَبْــهظ كاهل الإرادة والفكر.. وتَمَّ الفوز للضمير فى جميع المعارك .

أما سيطرة الكهنوت، فقد تقلصت، وتقرر حق الإنسان فى أن يختار دينه ومذهبه .

وأما سَيطرة الأباطرة والمستبدين، فقد رفـــع الضمـــير فى وجهها حق الجماهير، وناداها إلى موعدها مع الحياة .

ولقد بدأ الضمير عمله الثَّورى من أجل الجُمـــوع الهائلـــة المغلوبة على أمرها باختيار المفكر الذى سيضع لثورات التحريـــر السياسى فِقْهها ومَنْطقَها الغلاب .

وكان "روسُّو" ...

كان مؤلف "العقد الاجتماعى" ..

كذلك اختار الرجل الذى سيضع لتلك الثورات أناشـيدها المحركة المجلجلة .

كان "توم بين"، مؤلف"الفهم" و"حقوق الإنسان" ..

* * *

ولقد تحدث"روسو" طويلا، وكان عقلا بارعا وهو يُحـول حرية الإنسان إلى فقه وقانون ـ ها هو ذا يتحدث :

● ـ "إذا بحثنا عن القاعدة التى يتحقق بها كل الخير لكل الناس، والتى يجب أن تستمد منها كل القوانين، ألفينا هذه القاعدة تتكون من أمرين مقدسين: الحرية، والمساواة ..

"الحرية، لأن كل تبعية خاصة، لاتعنى نقصًا فى نفوذ من سلبت حريته فحسب، بل نقصًا فى نفوذ الدولة نفسها ..

"والمساواة، لأنه لاوُجود للحرية بدونها..

"وأنا أعرف الحرية بأنها الحقيقة التى تجعل الإنسان سيد نفسه فى ظل القوانين العادلة التى يضعها الناس بأنفسهم لأنفسهم..

"والمساواة ليست هى الشىء الذى يجعل الناس سواء فى درجات السلطة والثراء ـ بل هى ألا تجاوز السلطة حدود العدل فتظلم ، أو تتخطى القوانين فتستبد .

"وهى أيضاً، ألا تكون هناك قلة تملك من الثراء ما تستطيع أن تشترى به مواطنين، كل ذنبهم أنهم خلقوا فقراء .."

* * *

والحرية أكثر قداسة من أن تكون مجرد حق شخصى .

ومن ثم فهى ليست ممتنعة عن إرادة سلبها فحسب، بل وممتنعة عن إرادة التنازل عنها أيضًا .

فلا يستطيع إنسان ما أن يتنازل عن حريته طائعًا .

وفى هذا يقول"روسو" أو يقول الضمير الإنسانى على لسان "روسو":

● ـ"إن تنازل الإنسان عن حريته، يعنى تنازله عن صفـــة الإنسان فيه.. ويعنى تنازله عن كل ما له من حق، وما عليه مـــن واجب ..

"وتنازل كهذا يفقد صاحبه الحق فى أى تعويض..

"وتنازل كهذا يناقض كل طبيعة الإنسان.

"ونـــزع الحرية، من إرادة الإنسان يعنى نـــزع كل فضيلة من أعماله..

"وإنه لعهد باطل، كل عهد يجيز قيام سلطان مطلق مـــــن ناحية، وطاعة لاحد لها من ناحية أخرى "

* * *

وهذه القاعدة المتمثلة فى الحرية والمساواة لا يترك مصيرهـــا للأريحية، أو الهوى، بل يجب أن ينتظمها عهد ويحميها القانون .

والعهد الذى تشترك فيه الحكومة والشـــعب، لا يعطـــى الحكومة أى امتياز يجعلها فوق الأمة أو فوق القانون .

والآن، مع "روسو" مرة أخرى .

• ـ "إن كل عهد سيادة ـ أعنى العقد الذى أثمرتـه الإرادة العامة للشعب، ليس عقدًا بين الأعلى والأدنى .. بل هو عقـد بين أطراف متكافئة، لأن الإرادة العامة لكل المواطنين، هى الـتى صاغته والتزمته ".

* * *

والقوانين يسنها الشعب بأجمعه عن طريق ممثليه المختـارين واقتراعه الحر ــ وبذلك يتوفر لها الصلاح والتوقير.

• ـ "إن جميع الشعب إذا سن القوانين من أجـل جميـع الشعب، لم ينظر حينئذ إلا إلى نفسه ومصلحته .

"وما دام غرض القانون عاما، فلا ينبغى أن يكون واضعـه فردا، ولا أن تكون غاياته شخصية .

"وليس معنى هذا أن القانون الذى يضعه الشعب لن يعترف بوجود امتيازات.

"كلاـ ستكون هناك امتيازات.. ولكن لن ينعم بـها على شخص باسمه، ولا على طبقة بذويها".

* * *

هكذا تحدث "روسو".

والقوانين التى تنبلج من مثل هذا العقد، والتى يضعها ممثلون

مختارون من الشعب لها قداسة تجعل تخطيّ الحكومة لها عملا خطير العواقب، ولكى تظل سيادة القانون قائمة ينادى "روسو"بضرورة الفصل بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية.

● ـ "لا ينبغى لمن يحكم، أن يضع القانون.. ولاينبغى لواضع القانون أن يكون هو الحاكم.. فإذا صارت السلطة تنفيذية وتشريعية معاً، يصبح القانون فى خدمة الهوى، وليس فى خدمة المصلحة العامة ..

"إن روما وهى فى أزهى عصورها شهدت انقضاض كل عواقب الطغيان عليها، واستسلمت فى عجز لقوى الإبادة والتخريب، وذلك لجمعها السلطة التشريعية والتنفيذية فى بضع أيد حاكمة ـ".

* * *

ويرى"روسو" أن الحكومة والشعب يحتاجان إلى وظيفة سياسية لها خطرها وفائدتها. ويسميها"المحاماة عن الشعب" ويعنى بها ـ "المعارضة" التى يشترط أن تكون نزيهة وأمينة، وألا تجعل اقتناص الحكم غرض حياتها أبدًا..لأنها إذا أدركت جلال مسعاها علمت أنها أعظم من الحكومة..!!

بل إن"روسو" ليبالغ فى فرض التبتل على المعارضة فيعلن

أنــها لاحق لها فى الحكم ، ولا فى سن القوانين..!!

ما عملها إذن ..؟

إنــها حارس البرج.. إنــها الديدبــان الــذى يــهاجم الأخطاء وينادى الحكومة والشعب إلى واجباهما .

ها هو ذا"روسو" يقول :

● ـ ".. وليست ـ المحاماة عن الشعب ـ قســما مكونــا للمدينة، أو الدولة ـ :ولا ينبغى أن يكون لها نصيب فى الســلطة التشريعية، أو فى السلطة التنفيذية، ومع هذا، فإنــها صاحبــة سلطان عظيم، وسلطانــها لا يتمثل فى الفعل، وإنما يتمثــل فى المنع، فهى قادرة على منع كل خطأ. وهى كمدافعة عن القوانين تعتبر أقدس وأجل من الأمير ومن الحكومة معًا"..!!

* * *

ويمضى "روسو" فى تعبيره عن مشيئة الضمــير الإنســانى واضعًا تصميم الحريــات السياســية والحكومــات الصالحــة، والمجتمعات القوية.

ولئن كانت أفكاره قد خضع بعضها فيما بعد لتعديــلات كثيرة وضرورية، إلا أن جوهر تلك الأفكار عاش وسيظل ناصع الحجة باقى الصواب.

ويدوى صوت "توم بين" مبلغًا إرادة الحياة.

• ـ وإذا كان للحياة الإنسانية أى معنى فهو هنـــاك ـ فى كرامة الكائن البشرى".

• ـ "والآن يامن، يا مـــن تحبـــون الجنـــس البشـــرى، انـــهضوا.

" إن الضغط والاضطهاد ليعصفان بكـــل بقـــاع العـــالَم القديم..

"إن الحرية لَتُطارَدُ حول الكرة الأرضية كلها، فهيا استقبلوا الطريدة اللاجئة..؟؟؟

أى معنى للحياة الإنسانية إذن، إذا صارت الحرية طريـــدة ولاجئة..؟؟!!

ألا تصبح كل الحياة وكل أحيائـــها الأناسِـــىّ فى خطـــر وبيل..؟

لابد إذن من مُواجهة حاسمة.

لابد أن تُذعِن كل القلاع العتيقة المزمِنَـــه فى عداوتـــها للحرية، لابد من أن تُذعن لكلمة الضمير.. وتفســـح الطريـــق للعالَم الجديد المُقبل.

أرافِضةٌ هى أن تُذعِن ..؟

أمصمّمة هى على البقاء وقد فات أوانُها، وجاء أجلهُا..؟، فلتَذق إذن وَبالَ أمرها ..

وهكذا، ومع هذه الرياح الصادحة، نــهضت الثورتـــان الكبيرتان ـ ثورة الحرية فى أمريكا.. وثورة حقوق الانســان فى فرنسا.. وهبّت بعدهما ثورات التحرير فى كل مكان...!!

• ـ "لو تأكد لى أن تسعمائة وتسعين أمريكياً من كـــل ألف سيهلكون فى ـ "الحرب من أجل الحرية" لأعطيت صوتـــى لنخوض تلك الحرب؛ إن ذلك أفضل لَدَىَّ من أن أرى بـــلادى مستعبدة ..

"وإنى لأعلم أن الذين سيعيشون بعد هذه الحـــرب ـ وإن يكونوا قِلّة ـ ستولَدُ منهم أمة الأحرار" ...!!!

هكذا تحدث"آدمز" أحد زعماء ثورة الاستقلال فى أمريكا.

وتمثلت فى كلماته هذه الخُطّة التى آثرها الضمير يومذاك:

ـ "الحرب من أجل الحرية" ..!!

الحرب التى تِلَدُ أحداثها عالَمًا من الأحرار..!!

لقد كانت هذه الكلمات شعار تلك الأيام: وشعار العصـــر الذى أهلّت معه عصور الحرية جميعا.. الشعّار الذى سيدعو كل أمة أن تحارب من أجل حريتها .

ولكن ، أو لم يكن ثَمت سبيل لإدراك الحرية غير سـبيل القتال ..؟

وأين دعوة الضمير الإنسانى للمحبة وحرصه على السلام..؟

فى تلك العصور البعيدة لم يكن ثمت سبيل للحرية بغير القتال.

وكل قتال تفرضه الأحداث للدفاع عن حقوق الحياة، فهو عملية جراحية لابد منها لكى تدوم للسلام عافيته ونموه.

والضمير، حين أثار الشعوب ضد الجاثمين فوق مقاديرها والمستبدين بمصايرها، كان يدرك أن المعارك ستبلغ من الضراوة مدّاها.. ومع هذا، فما كان ثمت سَبيل أخرى لِوَصْل الجموع التائهة بمستقبلها ..

ها هو ذا ـ توم بين ـ يعّبر عن موقف الضمير الإنسانى تجاه مبدأ"الحرب من أجل الحرية" ، فيقول :

- ـ "أنا أكره الحرب..

"إنها أسوأ الطرق لإبقاء الإنسان فى هاوية المهانة، ولجعله وحشاً ضاريًا ..

"ولست أكره شيئًا على الأرض، مثل كراهيتى للحرب..

"وإن جميع كنوز العالم فيما أعتقد، ليس فى استطاعتها أن تغرينى بتأييد حرب عدوانية؛ لأنى أرى ذلك قتلا وإزهاق أرواح..

"ولكن، إذا اقتحم لص بيتى، وأحرق أو أتلف ممتلكاتى. وهدَّد حياتى، ثم طوَّقنى بإرادته المطلقة، فهل يُطلب إلىّ أن أصدَع بأمره ..؟؟

"كلا .."

* * *

تلك هى القضية إذن.. إذا اقتحم لص بيتك وعاثَ فيه فساداً، ووضع عنقك تحت حدِّ خِنجره أو فوهة مسدسه، فلا مفر من أن تنهض على قدميك، وتقاتل كرجُل..

ولقد كان الاستعمار هو اللص الذى يقتحم الأوطان .

وكان الطغيان ، هو اللص الذى يقتحم الأرواح .

ولم يكن من المقاومة بُدّ .

ولم تكن تلك المقاومة لحساب جيل من الناس، أو أمة من الأمم .. بل كانت لحساب المصير الإنسانى كله .

- ـ"إن هذا لنا جميعًا..ولأولادنا مِن بعدنا .. فنحن الطليعة.. وليس ما ننهض به اليوم سوى بناء عالم جديد.."

هكذا قال "توم بين" ..

* * *

وهكذا شرَع الضمير الإنسانى يبنى العالَم الجديد.

وصَحا أحرار القلوب فى كل مكان .

وأخذت أبراج الحرية تتبادل الإشارات المُضيئة.

والْتقت الرُّؤَى بالحقائق فى كدْح نبيل، ومُخاطرات حافِلَة.

وتنادَت الشعوب المقهورة، والجموع المستعبدة ..

ـ "هيا يارجال، إن هذا لنا جميعًا.. ولأبنائنا مِن بَعدنا ـ "

والْتقى الَجمعان..

الجمع الذى يحمل من المستقبل تفويضاً ليتحـــدث باسمـه ويضرب بساعده .

والجمع الذى جعلتهم ظروفهم التَّعِسَة سدَنَةَ لهياكل كـــل التخلف وأطلال التسلُّط .

وقامت الثورات، لامعلنة حقوق مواطنيها فحسب.. بـــل حقوق الإنسان جميعًا، وحق الناس كلهم فى السعادة والحريـــة والكرامة .

قامت ثورة الاستقلال فى الولايات المتحدة.

وثورة حقوق الإنسان فى فرنسا.

وثورات أوربا والأرضى المنخفضة ..

وبعد حين، يجىء ماركس، فيضع مع صاحبه أنجلز ميثاق ثورة كبرى من طراز جديد تندلع حين يجىء ميقاتها فى روسيا القيصرية لتبنى فوق أنقاضها "اتحاد السوفيت"..

ويظهر فى الشرق "إعصارٌ مباركٌ" يبذر الثورة فى كل مكان وتتحول أنفاسه الحارّة إلى عواصف وبراكين، ويبثّ فى وعى الجماهير ألغامه الموقوتة التى ستتفجر فى حينها المحتوم .

ذلكم هو"جمال الدين الأفغانى" رجل من أكفأ الثوار، وأكثرهم مضاء واقتداراً .!!

* * *

ولقد كان من الطبيعى أن يكون لأكثر تلك الثورات أخطاؤها وإسرافها، بيد أن الغرض التاريخى الذى أسهمت جميعها فى إنجازه كان عظيما بقدر ما كان ضروريًا .

* * *

والآن، لنقف طويلا مع تلك الحقبة المباركة التى حشد الضمير الإنسانى خلالها كل رشده وعزمه ليضع ختاماً حافلا لمأساة الرقيق :

إنسان يشترى إنسانًا آخر مثله..يدفع فيه قدراً من المال

لتاجر شقي يسرق الناس ليبيعهم، أو يشتريهم من آخرين في مثل شِقْوَتِه..؟؟

وتبلغ المأساة ذروة بشاعتها، أو قولـــوا سَـــفح البشَـــاعة وحضيضها، حين تسن القوانين الدولية التي تنظم تجارة الرقيـــق، وتجعل منها عملا مشروعا..!! وحين تصـــير لبعـــض الملـــوك والملكات في أوربا"أساطيل بحرية" تعمل في خدمة تجارة الرقيـــق لقاء أجور مرتفعة وأرباح طائلة..!!!

أي انحدار للبشرية..؟

وأين عزم الضمير الإنساني..؟؟

إن محاولاته النبيلة عبر القرون المديدة تجد آخر الأمر ختامها الحافل والحاسم .

وسيتمثل ذلك أولا في إحدى رَوائِع الفكر الإنساني.

وسيتمثل ثانيا في ـ "الحرب من أجل الحرية" فتقوم حـــرب أهلية من أجل الرقيق في بلاد سيبقى لها شـــرف هـــذا العمـــل الجليل.

أما الفكر الذي سيختاره الضمير هذه المرة لإبلاغ كلمتـــه ـ فصاحبه سيدة.. تعالَوْا نَنْحَنِ في إجلال قبل أن ننطق اسمها .. إنـــها"هرييت بِيتْشَرستاو" ..

إنـــها مؤلفة"كوخ العم توم" ..!!

إنـــها ستتحدث.. وسيوحى الضمير إليها بكـــل تجربتـه المضنية مع هذا الوباء ليُشعل بكلماتـــها النار المقدسة فى كـــل قلب بشرى، حتى يطهر الأرض من شرِّ أوزاره وخطاياه ..

سوف تضع السيدة "ستاو" على ألسنة أبطال قصتها كـــل وقائع المأساة البشعة ـــ مأساة الرق فى كل عصوره ومرارتـــه، وسترسم الخلاص الوديع الطَّيب .

والآن. إلى أبطال كوخ العم توم لتسمع من حوارهم وثيقة من أبلغ وثائق الضمير الإنسانى .

● ـ "..أنا أعلم ياجورج أنك مازلت مُتحسراً على عملك الذى فقدته، كما أعلم أن لك سيداً قاسياً لاتعرف الرحمـــة إلى قلبه سبيلا، ومع هذا فلابد من أن تصبر ..

ـ "أصبر..؟؟ تقولين. أصبر..؟؟ ألَم أكُ صابراً طِوالَ هـــذا الشقاء ..؟

"بلى، كنت صابراً ياجورج، وإنه لأمر فظيـــع . ولكـــن الرجل على أية حال سيدك "

ـ "تقولين سَيِّدى..؟! ومَن الذى جعلَه سيدى ..؟! ذلـــك ما يقضُّ مضجعى..! أى حق له علىّ..؟ أنا إنسان بقدر ما هـــو

إنسان، بل أنا إنسان خير منه؛ فأنا أعلم منه بالتجارة، وبالقراءة، والكتابة.. ولقد تعلّمتُ ذلك كله بنفسى، ولم يكن له أىُّ فضل علىّ فى هذا.. بل لقد تعلّمت على الرَّغم منه.. والآن فبأىّ حق يَنتزعنى من عملى، ويحملنى على القيام بأعمال يستطيع أى ـ حصان ـ أن يقوم بها ".؟!

ويفاجأ ـ تُوم ـ .. ببيع سيده له ليقضى بثمنه ديونًا آخذة بخناقه ..

ولكن، كيف يُباع تُوم، وقد صار جزاءًا من تاريخ هذا البيت وهذه العائلة، وهذه الولاية ..؟

وتقول له زوجته :

- ـ "على أية حال ياتوم، فأنا لاأستطيع ألاّ ألوم السّيد عَلى بيعه إيَّاك" ..

ويجيبها توم ..

ـ "إذا كنت تحبيننى حقًا، فلا تذكُرى "السيد" بسوء.. ألَم أحمله على صدْرى وهو طفل صغير..؟؟" هذا هو وفاء وحُبُّ وأدَبُ الذين كتب عليهم أن يكونوا رقيقاً وعبيداً ..!!

أهناك ما يُصور عظمَتهم المخبوءة مثل هذه العبارة التى كشفت بها السيدة "ستاو" نفسية توم الممتلئة بهاء ووفاء

وعظمة..!؟

ولكن "تُوم" يُصَفَّدُ بالأغلال تـهيئةً لِشَحْنه فى ركـاب سيده الجديد، وتقف زوجه وطِفلاه ينتحبون .

وإذ هو مع سيده فى الطريق، يميل به السيد ليعقد صفقـة أخرى كان على مَوعْد معها .

وكانت الصفقة طفلا، ولا يكاد التاجر يمد إليه يده بالحبال ليربطه حتى تتهاوَى فوقه أمّه الوالهة، وهى تتضرع إلى التـاجر لا من أجل أن يترك لها ولدها، فذاك شىء بعيد المَنال.. بل مـن أجل يربطها بنفس الحبال التى يربطه بـها حتى لايفرق بينـها وبين فلذة كبدها ..!!!

● ـ "ضعنا نحن الاثنين معًا.. ضعنا معًا من فضلك أيـها السيد..أتوسَّل إليك؛إنه طفلى الأخير الذى بقى لى من الحياة"..

ولايملك توم إلا أن يبكى.

إن حياة الرقيق إذا سميت من باب المغالطة"حياة".. لهى من السُّوء بحيث يصعب وَصفها.

لكن مؤلفة"كوخ العم توم" استطاعت أن ترسم على ألسنة أبطالها مشاهد مبكية ومُفجعة لهذه الحياة، بل إنـها لتؤكـد أن دورها لم يزد على تسجيل ما كانت ترى وما كانت تسـمع فى

دنيا الرقيق .

لقد استطاعت في إخلاص وبراعة أن تُقْلِق ضمائر النـــاس بتلك الملامح التي رسمتها المأساة .

لقد كان "الضيَّاع" هو المُرادف الصحيح لكلمـــة "حيـــاة" بالنسبة للرقيق .

ها هي ذي السيدة "أوفيليا" تسأل الأَمة "توبســـي" عَـــن عُمرها.

فتجيبـــها "توبسي" .

ـ "لستُ أدري ياسيدتي ..

ـ "ومن هي أمك ..؟؟

ـ "لست أدري أيضاً.. لم تكن لي أم في يوم من الأيام..!!

ـ "لم يكن لك أم..؟ عجباً، أين وُلدت يافتاتي..؟

ـ "لست أدري ياسيدتي.. أنا لم أُولَدْ في يوم من الأيام"!!

ومَلْمح آخر من ملامح الضياع القاسي الذي كتب علـــى أولئك المساكين، ترسمه الكاتبة على لسان "كاسي" .

● ـ "لسْنا نعرف سبيلا سوى القبر" .

"إن أحقر الحيوانات والطيور لَتجد لها مسكنًا ومـــأوى.. حتى الحيَّات والتماسيح لها جُحورها، وأوطانها التي تستقرُّ فيـــها

وتَهدأ ..

"أما نحن، فمالَنا من مأوى.!!

"وحتى حين نـهرب منهم إلى المستنقعـات، تتعقبنـا كِلابهم، لِتنهشنا وتُمزقنا ..

"كل شيء ضدّنا، حتى حيواناتـهم عدوٌّ لَنا..!؟ فإلى أيـن نذهب"..؟!

* * *

ولقد دوّخ هذا الضياع عقولهم وضمائرهم وملأها يأساً وحقداً وفقدوا الأمل فى ثواب الآخرة وفى عدالة الدنيا .

ها هو ذا"توم" يُواسى إحدى الضحايا قائلا :

● ـ ألا تعلمين أن يسوع سيبسط إليك يَدَ عَوْنـه، وأن مَثواك الجنة، والراحة الأبدية ..؟؟

فتجيبه فى جَزع أليم :

● ـ لستُ أريد الذهاب إلى الجنة !! أليست هى المكـان الذى سيذهب إليه ذووا البَشرة البيضاء..؟، إنى لأفضل الجحيـم على الجنة ما دمت سأجد فى الجنة سيدى، وسيدتى".!! والآن، ماذا كان موقف الرقيق المعذّب من نكبتهم هذه..؟

إن بعضهم يقضم أسنانه من الغيظ ويبحث عـن فُـرص

الانتقام .

وبعضهم يغفر، ولكنه يحتفظ بحقه فى القصاص أمـــام أى عدوان جديد .

وبعضهم يلوذ بالضمير ، وبالحُب..

● ـ أما الفريق الأول فترسم المؤلفة صورته فى مَشهد للأمَة المعذبة التعسة"كاسى" حيث تتأهب لاغتيـــال سـيدها الفـظ المتوحش، فتسقيه من الخمر حتى يفقد وعيه، وتخبئ فأسًا لتهشم بـــها رأسه المثقل بالقسوة، وفى هجعة الليل تنـــادى فى همـس خفيض:

ـ "توم..توم، ألا تُريد أن تنعم بحريتك ..؟

ـ "هيا الآن ياتُوم، إن باب غرفته لمشرَع.

"خذ الفأس واسحق بـــها رأسه؛ فإن ذراعىَّ ضعيفتان..!

* * *

ـ أما الفريق الثانى، فيتبدَّى فى موقف"جورج" ذلك العبـــد المطارَد الذى لايريد من الدنيا إلا أن تتركه وشأنه دون أن يَـرزَأه ناسُها من جديد ..

● ـ "إنى لن أهاجم أحدا... لكنى كذلك لن أقف موقـف المتفرج وأنا أنظر زوجتى تُساقُ بين يدى النخَّـــاس لتُبـــاع فى

الأسواق ..

"إن الله أعطانى ذراعين قويتين للدفاع عنها وحمايتها"

"فليُساعدنى الله.. إنى سأقاتل حتى الرَّمَق الأخير قبل أن ينتزعوا منى زوجتى وولدى، فهل أنا فى ذلك مَلوم"..!!

لاياجورج.. لستَ أبدا بمَلوُم ..!!

* * *

● ـ أما الفريق الثالث الذى يُؤثر الصبر ويُؤمن بأن قضيَّته العادلة ستجد فوزها فى المحبة. وانتظار رحمة الله، فمَثَّله فى القصة هو ـ "توم"

فعندما دعته "كاسى" ليسحق بالفأس رأس سيده"ليكرى" وهو يغطُّ فى نومه رفض"توم" أن يصنع.. رفض فى وقت كان جسده فيه لا يزال مُتقيحا من أثر التعذيب الوحشى الذى أنزلَه به "ليكرى" هذا ..

وأجاب "كاسى" قائلا :

"لا.. لاياكاسى، لن ألوث يدى بالدم، ولو أعطِيتُ الدنيا بأكملها" !!!

وترد عليه"كاسى" قائلة:

ـ"ولكن فكِّر ياتوم فى هذه المخلوقات البشرية التى قد تُوفق

فى تحريرها جميعا من وحشية هذا السيد ـ ليكرى ـ "..

ويُجيبــها توم:

"لا..لا.. إن الخير لايجىء أبدًا من الشرّ!!، إذا اســتطعت فاهربى من غير إراقة دم"..!!

* * *

وماذا كان موقف الصفوة والسَّادَة من هذه المأساة؟

إن المؤلفة تختار واحدا منهم فى ضميره حيـــاة؛ فيفضـــح دخائل هؤلاء السادة ويُعلن رأيه فى جريمة الرق.. إنه فى القصَّـــة السيد "سانت كلار".

ـ "أتريدين ياأوفيليا أن تعرفى حقيقة رأيى فى الرق.؟

"إن المزارعين الذين يفيدون من هذا النظام، ورجال الدين، الذين يتملّقون هؤلاء المُزارعين ..

"والسياسيون الذين يتصنعون تجاهل الرق كجريمة، لكـــى تبقى لهم مناصبهم ..

"هؤلاء جميعاً، يملكون من الحذق ما يستطيعون به تحريـــف الحقيقة والأخلاق.. بيد أنـــهم فى قرارة أنفسهم يعلمون كـــم هم كاذبون..!!

"إن نظام الاسترقاق رجس من عمل الشيطان، وإنه ليمثـــل

نموذجا بارعاً لما يستطيع الشيطان أن يصنعه فى مجال اختصاصه..!!!".

* * *

لابديل للحرية.. وليس فى نعيم الدنيا كله ما يصلح أن يكون ثمنًا لها، أو عوضًا عنها .

تلك هى الحقيقة التى حق على الناس ـ جميع الناس ـ أن يدركوها .

وإن"توم" ليجليها أروع جلاء فى حواره مع سيده الذى يمن عليه قائلا :

*ـ "سوف أجعل منك رجلا حرًا ياتوم ..!!

ـ "شكرا للرب ياسيدى .

ـ "ألا ترى ياتوم أنك عشت عندنا حياة أفضل من حياة الحرية ..؟؟

ـ "كلا ، أيها السيد، كلا ..

ـ "هل كنت ياتوم قادراً بحريتك أن تلبس ما كنا نكسوك، وتطعم ما كنا نطعمك.؟

ـ "هذا صحيح ياسيدى، ولكنى أوثر أن تكون لى ثياب حقيرة، وبيت حقير، وأنا أقول: هذه الأشياء لى... على أن أتمتع

بخير من ذلك كله مما يملكه، ويملكنى معه رجل آخر اسمه ـ سيدى ـ " ..!!!

* * *

وبعد، فهذه المأساة أيّان مرساها ..؟

كيف ستجد حلها ومصيرها..؟

لنمض مع المؤلفة :

ها هو ذا "توم" يعانى آلامه المبرحة التى أصابه بها تعذيب بالغ الوحشية، أنزله بجسده الطاهر الوهنان سوط سيده "ليكرى".. هذا السيد الذى رفض "توم" أن يغتاله والفرصة مواتية.. هذا السيد الذى أجلُّ فضائله ـ النذالَة.. وأهون رذائله الوحشية ..!!

هاهو ذا العمّ"توم" الوديع، الطيب، المؤمن، الإنسان، يُعالج سكرات الموت فى هدوء وصبر .

وبينما يتهيأ جفْناه ليُسبلا إلى الأبد، إذا شاب مُهنَّد، قد جاء يركُضُ بِجواده.. جاء من بلد بعيد يبحث عن"توم" الذى طالما حمله على صدره وليداً ، وطفلا ..

ويتهالك الفتى على الجثمان المحتضر المودّع، وهو يصرخ:

ـ "توم.: توم، لاتَمت ياتوم ..!!

"لقد جئتُ لأُحَرِّرَك، وأعود بك إلى كُوخِكَ القديم.

توم.. توم.. لاتَمُت.. سأشتريك ياتوم."!!

ويجيب"توم" بآخر كلماته فى مثل هَمْس القديسين:

● ـ "شكرًا لك.، لقد جئتَ متأخرا ياولدى..

"إن الربَّ قد اشترانى" ..!!!

* * *

أجَل، إن الله قد اشتراه، واشترى معه جميع الرقيق..

ولسوف يُبارك الله الضمير الإنسانى فى ضربته الماحقة التى سَينـزلها بالمجرمين حُماة الرق وتُجاره ..

وإذا لم يكن من الحرب بُدّ، فلتكن الحرب.

وينـزع من بين صفوف البشرية ذات يوم ـ وبعد ظهور قصة "كوخ العم توم" ببضع سنوات ـ رجل كضِياء الفَجْر، يَحكى بهاء الصدق وصمُودَ الحق.. ويعقد بسم الله الصفقة المباركة التى سيُحرر بها جميع الأرقاء.

هذه الصفقة التى تنبأ بها "توم" ورُوحه تفيض وتصعد إلى بارئها قائلا: ـ "إن الربَّ قد اشترانى"..

وكان"إبراهام لنكولن". هو ذاك المحرر العظيم .

* * *

هكذا كان عصر العقل، عصرُ الإنسان، ففيه تحررت المعرفة من كل معوقاتها، ونَمت نموًا سريعًا وهائلا، وبدأت تغـــزو فى توفيق عظيم كل المجهول.

ليس ذلك فحسب.. بل وإن ذلك تمّ ويَتمُّ لحساب التقــدم الإنسانى والمصير الإنسانى .

فقُوى الذهن وطاقات الفكر جميعها مُسخَّرات لكشـــف مصادر مستمرة للثراء الإنسانى بكل صُنوفه المادية، والعلميـــة؟ والرُّوحية..

والضمير يقظ لكل التَّناقضات التى تصاحب زحف التقــدم الحثيث .

وهو فى موازنة مستمرة بين قوى الجذْب والدَّفع فى هـــذا التقدم المُطَّرد.

فمع ثورات التحرير فى بداياتـــها، رَكَّزَ الضمير على حـق الفرد تركيزًا أمينًا، ووضَع كل النظم والقوانين فى خدمة الحريـة الفردية.. ذلك أن البشرية كانت ترزخ تحت ســيطرة طغيـان متعدد الأزياء دغدغ كثيرًا من صلابتـــها، وأذاب كثـيرًا مـن شخصيتها، فلم يكن للحرية معنى حين جاءت، لو أنــها تخطَّت الوحدة الأولى فى البناء البشرى، مُتَمثِّلَة فى الفرد .

ولكن حين يتقدم العهد، ويتحول مبدأ الحرية الفردية فى أيدى أساتذة الدهاء والمغامرة إلى امتياز خاص تَنْعم به قلَّة من المحتكرين والحاكمين، يُلقى الضمير بثقله فى الجانب الآخر، فيسارع الفكر إلى تلبية ندائه، ويعيد التوازن إلى القيم المضطربة.

ليست الحرية، أن تُتْخَمَ قِلَّة بجوع الكثرة ..

ولست أن تمتلئ السماء بدخان المصانع مُكَفَّنة به أنفاس الكادحين، وعافيتهم، وأرواحهم.. !!

وليست أن تعود تجارة الرقيق فى أزياء تنكُّرية، ويسيطر سادة المال وأرباب المصانع والأرض على حركة الحياة.

ليست الحرية شيئاً من ذلك.. وإذا انزلقت قوى الشر بها نحو هذه المهاوى، فلابد إذن من نذير جديد .

ويجيء النذير.. موكب من دعاة الاشتراكية تنتهى أمانيُّه وأحلامه عند"ماركس" الذى يحوِّل الأمانى إلى حقوق، والأحلام إلى فلسفة ونظام .

لقد اكتشف ـ ماركس ـ المنطق التاريخى، الذى يجعل الاشتراكية ميقاتاً ومَوْعدًا فى مسارِ البشر ورحْلَة الحياة.. وصاغ فلسفته المقاتلة التى حققت غرضها التاريخى، فقدمت بالكادحين إلى مكانهم الحق فى الصفوف الأمامية، وهزت الأوضاع

الاقتصادية فى العالم كله هزّات هائلة أسقطت عنها الكثير مـــن خَبَثِها وأنانيتها، ووضعت الاشتراكية كفلسفة،ونظام،وحركة ــ فى مكانـــها من الحياة الإنسانية .

بيد أنـــها خِلالَ صياغتها كفلسفة، وخلال إنجازها كنظام وتطبيق تكشفت حاجتها المُلِحّة إلى إعادة النظر فى موقفها مـــن الروح الإنسانى الذى تَجــاهلت احتياجاتــه، أو لم تتجاهلــها ولكنها أدْخَلَتها كوحدة حسابية فى عمليات الإنتاج، والتوزيـع، وفائض القيمة ..!!

وهكذا صارت الماركسية التى جاءت ـ يـــوم جــاءت ـ كنذير للذين اتخذوا من حقوق الإنسان صفقة يقامرون بـــها فى سبيل جشعهم الوبيل.. نقـــول صـــارت "الماركســية" تبـدو وكأنـــها بحاجة إلى نذير يُصَحِّحُ موقفها من حريــــة الفكـــر، والقول، والضمير ...!!

والضمير الإنسانى كشأنه دائمًا لايدَعُ الســيئات تلتـــهم الحسنات، والأخطاء تأكل المزايا.. ومن ثَمَّ فقد أرسل ألســـنته المفكرة فى كل مكان تعيد إلى حرية الضمير والتفكـــير والإرادة قداستَها، وتشير إلى الآفاق الجديدة التى ستعثر فيــــها المســألة الإنسانية كلها على تكامُلِها. فلا يتحقــــق العـــدل فى غيـــاب

الحرية.. ولاتتحقق الحرية فى غياب العدل.. بل تتشكّل منهما معاً، وعلى أوسع الآمال وأحفَلِها بالتوفيق.. جميع الحياة الناجحة لبنى الإنسان .

ويُواصِلُ الضمير دعم حقوق الإنسان، فيُتابع خَوْض المعارك مع الطاغوت الذى تَئِن تحت قدميه إرادة الحياة.. ذلكم هو الاستعمار.

إنه الابن الشرعى لقوى الاحتكار والاستغلال؛ ومن ثَمّ فهو يحميها ويبذل جهوده المستميتة ليطيل بقاءها.

وهو الذى فى سبيل بحثه عن الأسواق وامتلاكه منابع الثروات يَشنُّ الحروب الظالمة والفاتكة ويحتجز حريات الشعوب.

وهو إذْ يستمد وجوده من كل ضلالات الحياة وفسادها، فإنه يعمل دائمًا ودائبًا ضد قِيَمِها الخيِّرة فينصر الخديعة على الوضوح.. وينصر الكذب على الصدق.. ولايرى فى الحرية إلا صفقة يُساوِم بها وعَليها.. يؤمن ببعضها ويكفُر بأكثرها . يُبيحُها هنا، ويُحرِّمُها هناك ..

ومن ثَم لم يجد الضمير الإنسانى بُدًّا من أن يجنِّد كل طاقات البشر ليلْقى بها فى معركة فاصلة ضِدَّ هذا الخَصْم

المُبين.

وهكذا واصَلَتْ ثورات الحرية انطلاقاتها منتصرة ظافرة. حتى لم يعد فى طريقها إلاّ أهْوَنه وأقلّه .

* * *

ويُشارف عصر العقل قمّة مُهمته ومسعاه بإرسال سُفرائه إلى الفضاء والمجهول .

إن كل التهويمات التى حاول الفكر من قديم أن يتعرف بها إلى الكون ويُنجز بها توصيات الضمير الإنسانى بإنشاء علاقات وطيدة وصداقات نافعة مع الكون.. بكواكبه ونجومه..

تلك التهويمات التى جاءت مع الحدس القديم .. وتلك الإيماءات الذكية المُباشرة التى جاءت مع الدين . هذه وتلك تحوّلت فى عصر العقل على يد "أينشتاين" ورفاقه إلى نظريات وقوانين ثم إلى صواريخ تحمل إلى الفضاء بكل أسراره، لاحدْس الإنسان وظنونه ... بل علمه، وذكاءه، وقدراته، ويقينه..!

إن هذه الصواريخ عابرة الفضاء والكواكب، لَتتركُ فى كل مكان تجتازه أوراق اعتماد كسفير دائم لـ "أمّة الأرض" وإرادة الإنسان..!!

* * *

تُرى، هل يظل الذكاء الإنسانى بعد وثبته العاتية والمعجزة هذه ــ على وَلائه للضمير..؟ أم هو فى مُروقه المذهل من الأرض إلى الكواكب، يمرق أيضًا من المسئوليات التى لايفتأ يُذكره الضمير بها ويدعوه إليها ..؟

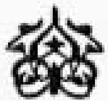
فى هذا المأزق وحده تتمثل اليوم مشكلة الإنسان .

ولقد كان الضمير صادق الحس بهذه المشكلة، فراح يلقاها فى أول الطريق، وينشئ لها عصرًا جديدًا يحمل نداءه ويَحمى رَجاءه.



# الفصل الرابع





# فى عَصر غاندى .. وَالذرّة ..









سار العلم يقطع الطريق وثبا ..

وجاء"جـــاليليو"، و"نيوتـــن"، و"دارون"، و"فرويـــد"، و"هرشل"، و"بريستلى"، و"دايفى"، و"فراداى"، و"مكســوبل"، و"ماركونى".

وجاء"دلتن"، و"منديلـــف"، و"كـــورى"، و"طمســن" و"موزلى".

وجاءوا جميعا وعشرات مثلهم، ونـــهضوا جميعـــا فـــوق أكتاف الذين سبقوهم فى الحضارات القديمة، ثم فى بلاد الإغريـق العظيمة، ثم فى الحضارة الإسلامية المزدهرة..

وساروا على الدرب الطويل، يحملون المشاعل نفســـها.. ولكن بقلوب أجرأ، وخبرات أعظم، وذكاء أكثر مضاء، وعزيمة أشد تصميما وإصرارا.

وحديث "الذَّرَّة" الذى بــدأ مــع الفيلســوف اليونــانى "لِيوسِبَّس"، ثم نما واتَّسع مع"ديمقريطس"و"أبيقــور"، ثم نظمــه "لوكريتْيَس" الرومانى فى ستة دواوين من الشعر!! ثم أخذ طَابعــاً عِلْمياً وجديدًا على يد"دَالْتن" فى أوائل القرن التاســع عشــر، ورفاقه الذين وفدوا بعده .

هذا الحديث عن الذَّرَّة، ظلّ يتنقّل فى أصلاب العقول حــتى وفَد على الحياة ذات يوم رجل عجيب اسمه "أينشتاين" فقــال الكلمة الأخيرة التى أطلقت العُنفوان الذَّرِّىَّ من مَكْمنه.

فى أى عام وُلد "أينشتاين"..؟؟

وهل يعنينا تاريخ موَلده كثيراً..؟؟

أجل.. إذن فلنعرف أنه ولد عامـ ١٨٧٩ـ

وُلِد الرجل الذى سيكشف أعظم حقائق العلــم اليــوم . وربُّما فى كل يوم ..!

وُلِد الذى ستبوح له "الذَّرَّة" بكلمة السِّر، فيفُــض آخــر مَغالِيقها.. ويخط بضعة رموز على ورقة بيضاء، فتتحوَّل هــذه الرموز إلى طاقة تناهت فى رَهبتها وخطرها..! ولكن .انظروا..

فقبل أن يُولَد هذا الرجل بعشرة أعوام تماما، أى فى عــام ـ ١٨٦٩ـ ولد رجل من طراز آخر اسمه"غاندى"..

أيَّةُ حكمة إلهية عُظمى .؟!

وأى اتفاق سعيد هذا ..؟!

قبل أن يجىء الرجل الذى سيطلق المارد الرهيب.. جـــاء الرجل الذى سيضع البلْسَم العجيب ..!!!!

قبل أن يجىء الرجل الذى أطلق طاقَة "الـــذّرّة" .. جــاء الرجل الذى أطلق طاقة "المحبَّة" ..

إنكم يا أهلَ عَصْر الذرّة أمام معجزة أعظم مـــن الـــذّرّة نفسها..!

أجَل.. فقد تحوَّلت المحبَّة إلى طاقة وأنتم لاتشعرون..!

والذين هتفوا بالمحبة وبالسلام وعاشوهُما منذ آلاف السنين إلى يومنا.. بُعث ولاؤهم النبيل للحُبِّ فى مهرجان النصر المجيـــد الذى هَيَّأه هذا الابن المبارَك العظيم للحياة ولضميرها ـــ قِدّيـــسُ عصرنا.. وقدِّيسُ العصور قاطِبة ـ غاندى ...!!

إن عالَمنا كان ينتظره ..

وإن الضمير الإنسانى كان يبحث عن هذا الذى يستطيع أن يبنى من كل هُتافات المحبة صرْحا مُوحَّدا، ويحولها إلى طاقة تـأتى من المعجزات بما يُقنع عصرًا عسير الإيمان.. ولقد وجد طِلبته فى غاندى ..

إن"غاندى" ، هو ضمير عصرنا.. وهو الممثل الحق للضمير الإنسانى فى أجيالنا وعالمنا الحديث كله ..!

وحين نضع "الذرة" فى الجهة المقابلة لـ"غاندى" لانعنى بهذا أننا نضع الشر مقابل الخير.. فإطلاق الطاقة الذرية خير عظيم رغم البداية البشعة التى استهل بها العلم عصر الذرة.

بيد أن العلم بسيطرته على الطاقة النووية، وغزوه الفضاء، قد هيأ لناس عصرنا المزيد من الغرور، والمزيد من الافتتان بالمادة، والمزيد من التجهم للإيمان، والمزيد من المباراة فى التسلح وصناعة الدمار والعدم .

أى أن كل محاولات الفتك بالحياة، عبر التاريخ الإنسانى كله، قد بلغ مدها الطاغى قمته عندما أصبحت الذرة سلاحا فى يد الإنسان .

فماذا كان جواب الضمير الإنسانى ..؟

كان أن اصطنع غاندى ليتحدى به الضعف الإنسانى فى كل ألوانه، ليركز فيه خلاصة تجاربه ومنتهى فضائله وسموه، ولتتمثل فيه عند الذروة أعرق وأعمق الحاجات الإنسانية من إيمان ، ومحبة، وكرامة، ووعى، وسلام.

وجاء غاندى ..

وكان أمره عجبا ..

جاء الرجل الذى سيعلم كل الناس، والذى تعلم من كل الناس ـ تعلم من"المسيح" و"محمد".. ومن"سقراط" و"بوذا"..

وقرأ لـ"إمرسون" ،و"ثورو"،و"كارليل" ،و"رسكن"، و"تولستوى" حيث تأثر به كثيرا وحاكاه كثيرا .

وإننا إذ نتحدث عنه. لانؤرخ له، وإنما نتتبع رحلة الضمير الإنسانى من خلال الحياة المجيدة لهذا القديس .

لقد بلغ الضمير الإنسانى قمة رشده، وهو يتحرك فوق مسرح الأحداث الكبرى لعصرنا متقمصا شخصية ابنه البار المهاتما غاندى ..

ولم يكن صدفة ولا اعتباطا أن تعطى البشرية فى وقت واحد ـ غاندى، والذرة ـ بل هو تدبير محكم لقدر عليم.

إن"الذرة" تعنى أن عصرنا قد وضع فى يده من أسرار الكون ومفاتح المجهول ما لم تعطه البشرية السالفة كلها.. فإذا وضعت هذه الأسرار فى خدمة الظفر والناب، فسوف تتحول الأرض ومن عليها إلى ذكرى كئيبة.

وإذا وضعت فى خدمة الضمير والعقل فستبلغ البشرية من ذر ى الكمال مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على

قلب بشر..

فكيف ـ إذن ـ نؤثر الثانية على الأولى..؟

كيف نضع أسرار الذرة وطاقتها النامية المعطية فى خدمة السلام والخير ..؟

إن الضمير الإنسانى يجيبنا بكلمتين اثنتين..."تجربة غاندى".

فتجربة غاندى لم تكن من أجل الهند وحدها.. وغاندى لم يكن رجل الهند وحدها.. ومهما يكن مصير الهند دولة وشعبا بعد رحيل غاندى عنها، فإن تجربة المهاتما ستظل نبراسا للبشرية كلها.. ستظل أرفع من أن تعطى دلالات قومية ضيقة؛ وستظل مفاهيمها وأنوارها عميقة شاملة ..

ذلك لأنها ليست من صنعه، ولا من وحى بيئته وعصره.. بل هى تجربة الأنبياء والمرسلين، والرواد والمصلحين.. تجربة الإنسانية كلها.. تجربة ضميرها القوى الشجاع منذ الأيام الأولى للبشر.. منذ الأزمان البعيدة الممعنة فى البعد .

ولكن، لأن المادة وحدها، صارت مصدر تفكير هذا العصر الذى نعيشه، فإن تجربة الروح التى مارسها غاندى بنجاح عظيم، بزغت كما لو كانت نسيجا وحدها .

ولقد كان قدرا علويا، أن يجىء هذا الرجل بتجربته فى

عصر يريد ألا يؤمن إلا بالمحسوس إلها للكون.. وبالقنبلة حلا للنزاع.. وبالاستغلال سبيلا للتملك، وبالدمار طريقا إلى الحياة. وبالكبرياء آية للقوة وبالبغى سبيلا للسيادة..!!

جاء هو، ليؤمن بالله الذى لا تدركه الأبصار.، وليؤمن بالحق الذى يجب أن يكون فوق القوة.. ولينادى بـ"الساتيا جراها" أى "نبذ العنف" ويحل بها أعتى المشكلات والأزمات.. ولينبذ التملك، ويسير عريانا وحافيا ليشارك الملايين من شعبه شقاءها وضناها.. وليحمل مغزله ويصطحب عنزته، فى الوقت الذى يقود فيه أكثر من ثلاثمائة مليون هندى فى معركة من أنظف وأعظم معارك الحرية والاستقلال، وفى الوقت الذى يعامله سكان الكرة الأرضية كأستاذ، وينظرون إليه فى تقديس كمعجزة ..!!!

جاء ليحترم الحياة ويقدسها، ليس فى الإنسان وحده.. بل فى الكائنات الحية جميعا .

ألا فلنصغ للضمير الإنسانى يتحدث من خلاله .

● ـ"لقد وجدت الحياة تنحدر فى هاوية الدمار بسبب العنف ..

"وقلت لنفسى: لابد أن هناك بديلا للعنف ينقذ الحياة

ويسمو بـــها على الدمار.

"وهذا البديل قانون صادق يجعل الجماعة الإنسانية منسقة، ويكرم مثوى الحياة .

"وإذا ما اهتدينا إلى هذا القانون، فواجبنا أن نعمل به مـــن فورنا.

"ولقد عرفت"القانون" وجربته فنجح أعظـــم نجـــاح...

"ذلكم هو المحبة..

"فحيثما توجد الحروب، وحيثما يجاهنا الخصـــم؛ فالمحبــة طريق الظفر..

"ولقد ظهرت آثار هذا القانون فى الهند على أوسع مدى..

"ولست أزعم أن مبدأ"اللاعنف" قد نفذ إلى أفئدة الثلاثمائة مليون والستين مليونا من الهنود ..

"غير أنى أؤكد أنه سيطر على النفوس أكثر من أية عقيـــدة أخرى، وفى سرعة تذهل الحاسبين..

"لقد علمتنا التجربة أن كل مشكلة تجد حلها الصحيـــح حين نصمم على أن نجعل قانون الحق ونبـــذ العنـــف دســـتورا للحياة...!!"

* * *

هكذا تحدث غاندى ..

إن كل مشكلة تستجيب للحل الصحيح، مادام الرفق والحب والحق دستورا للحياة .

ولكن حين لا يأتى هذا الدستور بنتيجة.. حين تأبى قوى الشر أن تذعن للحق وتستحيى من الحب.. ألا يكون السلاح يومئذ هو العلاج المناسب ..؟؟

إن غاندى يبتسم لمثل هذا التساؤل وهذا المنطق ابتسامة راث ومشفق..

فحمل السلاح عنده ليس حلا على الإطلاق، والسلاح كوسيلة لحل المشكلات ليس أمرا مهلكا فحسب، بل هو فاشل أيضا ومخفق كل الإخفاق .

ها هو ذا يقول :

- ـ"لقد أعلن الرئيس ولسن شروطه الأربعة عشر الطيبة، ولكنه ختمها بقوله: إذا فشلت محاولاتنا لإحراز السلام فلنعتمد على أسلحتنا ..

"أما أنا فأقول عكس هذا تماما.. أقول: إن الأسلحة قد فشلت وخسرت وخابت ، فتعالوا نبحث عن وسيلة أخرى.. تعالوا نجرب قوة الحب، وقوة الحق.. فإذا ظفرنا بنتيجة ، فآنئذ

نكون قد وجدنا الطريق" ..!!

ولقد ذهب يجرب قوة الحب وقوة الحق ..

لم يجربـــها ليحدد على ضوء نتائج التجربة مدى ولائـــه للحب وللحق، فولاؤه لهما وإيمانه بـــهما أرسخ وأعظم مـــن أن يكونا موضع تجربة وامتحان .

إنما يجرى التجربة لحساب البشر.. ليرى من له عينـــان، ويسمع من له أذنان، ويفقه من له قلب، كيف يعالج الخير الشر، وتقهر المحبة الكراهية..

فالسلاح عند غاندى وسيلة بائدة ومهلكة.

ولقد قال"فرنكلين د.روزفلت" يوما وهو رئيس للولايـات المتحدة: ـ"إن الالتجاء إلى القوة فى الحرب العظمى الأولى قصـر عن جلب السلام، فالنصر والهزيمة كانا عقيمين، وكـــان مـــن واجب العالم أن يتفهم هذا الدرس"..!!

وكل زعماء العالم الحديث قالوا ما قاله"روزفلت"، ولقـــد بحت أصواتهم جميعا هاتفة بضرورة نـــزع السلاح؛. بينما هـــم يتبارون جميعا فى جنون التسلح وصناعة الانتحار..!!

أما غاندى فتلك عظمته ..

قال: لاخيرـ اليوم ـ فى العنف وإنما الخير فى نبذه، ثم وضـع

هذه الحقيقة موضع التطبيق الأمين والرفيق، وشهدت الحياة وهى سعيدة مغتبطة ابنها البار هذا، أشيب الرأس، ضامر البدن ..

إذا جلس، ففوق تراب الأرض، وإذا نام فعلى أرض الغرفة العارية، ولا يملك من دنياه سوى ثلاثة أثواب خشنة، ثوبان لملبسه، ويتخذ من الثالث فراشا.. ويعيش على البندق والبرتقال والتمر ولبن الماعز، وكما يقدس صلاته وصيامه، يقدس بنفس القدر جلوسه إلى مغزله أربع ساعات كل يوم..!!

شهدته الحياة فى غبطة، وهو يخوض مع شعبه الأعزل أعجب معارك الحرية ضد امبراطورية كبرى، انتهت إليها يومذاك سيادة الأرض والبحر والجو.

خاض المعركة بسلاحه هو.. "الساتيا جراها" ـ"نبذ العنف".

و لم يكن يزعجه الرصاص المنهمر فوق أبناء شعبه من القوات المستعمرة الغاصبة، بقدر ما كان يزعجه أن يرى هنديا يرمى عدوه وقاتله بحصاة ..!!

ذلك أن الآخرين يتصرفون وفق شرائع الغاب التى يحملون رواسبها .

أما أبناء غاندى وحملة مبادئه، فيجب أن يتصرفوا وفق

مبادئهم هم ـ هذه المبادئ التى اكتشفت قانون الحـب والحـق ونذرت حياتـها له .

الآخرون، ينتمون إلى عصور الكراهيـة والعنـف.. أمـا غاندى ومريدوه فبذور بشرية جديدة، وبشائر عصور الحـب والتسامح والرشد..

* * *

حين صدرت قوانين"رولند" التى صادرت حريـة القـول والنشر. إثر انتهاء الحرب العالميـة الأولى.. ثم حـين أعقبتـها مذبحة"أمر تسار" الرهيبة، أصيب غاندى بخيبة أمل مريرة، فـهو الذى أحسن إلى بريطانيا فى الحرب، وبذل لإنجاح قضيتها كـل عون رآه مشروعا وعادلا.. والآن وقد غادرت ساحة القتـال منتصرة، فإنها تجازيه أسوأ جزاء ..

عندئذ، وأمام هذا الموقف الذى يحتـم القيـام بمناهضـة ومقاومة، أخرج غاندى من حقيبته أقصى وأقسى إجراء تسـمح له مبادئه باتخاذه، وكان"العصيان المدنى" الذى يتمثل فى عـدم التعاون مع المستعمرين.. شريطة ألا يقوم هذا العصيان السـلمى بأية بادرة من بوادر العنف وحمل السلاح.. لكن تجربة غـاندى المتمثلة فى الحب ونبذ العنف.. لم تكن قد عاشت بـين شـعبه

يومذاك إلا قليلا، فلم يكد الشعب يبدأ حملة"العصيان" حتى استجاشته الأحداث، فتحول العصيان السلمى إلى عصيان مسلح.

وعندئذ لم تشهد حياة غاندى أياما ملآى بالمرارة والحزن كتلك الأيام التى رأى فيها مبادئه تتعرض لهذه المحنة من أمته وشعبه، فأصدر نداءه الحثيث بإرجاء حملة العصيان المدنى، وثار كثيرون من الشعب ضده ووقع ضحية لعدوان فريق من الغوغاء أكثر من مرة ــ وكان هذا أقسى كثيرا على نفسه من أى عدوان يصيبه من الإنجليز أنفسهم.. ومع هذا فما ازداد إلا إيمانا بمبدأ "نبذ العنف" وأطلق يومذاك حكمته الوثقى:

- ـ"إننى أوثر الانتظار أجيالا وأحقابا، على أن ألتمس حرية بلادى بالعنف والدم" .

مبدأ عجيب حقا.. ليس فينا من يطيقه، ولكن غاندى لم يأت ليسير فى الدروب المطروقة.. بل جاء ليرتاد من مجاهل التفوق الإنسانى ما يحتم عليه الضمير ارتياده..

جاء ليعلم البشر أن المحبة تستطيع أن تغلب وتفوز، لابالنسبة له وحده.. بل ولجميع الناس أيضا .

من أجل ذلك، وحين قيل له:"إنك إنسان غير عادى..

ولاينبغى أن تتوقع من العالم أن يعمل مثلما تعمـــل"ـــ أجـــاب قائلا:

- ـ"إننى إنسان ضعيف وفان مثل بقيـــة النـــاس.. وإنى لأملك شيئا خارقا ..

"وسأنبئكم بكل ما أملكه..

"إنى أملك من التواضع ما يكفى للإقرار بخطئى والرجـــوع عنه..

وأملك ثقة مطلقة بالله وبجوده..

وأملك ولاء للحق وللحب لاينضب معينه..

"والآن دعونى أسألكم :أليس كل إنسان قـــادرا علـــى أن يمتلك هذه الأشياء..؟؟

"إننا نكتشف كل يوم جديدا فى عالم الطبيعـــة، والحيـــاة فلماذا نستسلم لليأس والعجز، ولا نكتشـــف الجديـــد فى روح الإنسان وإرادته ..؟؟

"وهبوا الاستجابة لقانون الحق والحب نادرة.. فهل ثمـــت استحالة فى مضاعفة هذه الندرة حتى تصبح قاعدة" ..؟؟!!

* * *

ما أعذب المنطق ، وما أصدقه.

منطق رجل واع لجوهر الحق، وجوهر الحب، ومدرك للمرحلة الجديدة التى لابد للبشرية أن تنتقل إليها حين يصير الحق والحب دستورها.

وهو إذ يخوض معركته مع الاستعمار البريطانى فى بلده على أساس دستوره هذا.. فإنه لايعمل لكى تظفر الهند باستقلالها فحسب، بل ولكى تنجح التجربة بنجاحها الذى يجعل منها طريقا عاما، للأجيال والشعوب..

هاهو ذا يتحدث:

- ـ"إن اهتمامى بحرية الهند سيزول لو رأيتها تصطنع لبلوغ حريتها وسائل العنف؛ لأن الثمرة التى تجنيها من تلك الوسائل لن تكون الحرية، بل الاستعباد "

* * *

ويقول:

ـ"إنى لاأكافح من أجل غاية أدنى من سلام العالم كله..

"فإذا انتصرت فى الهند حركة"نبذ العنف" فإنها سوف تعطى معنى جديدا للبطولة، وللحياة ذاتها، واسمحوا لى أن أقول هذا بكل تواضع"..

هذا مايريده الضمير الإنسانى إذن من غاندى.

أن ينــزع عن البطولة مفاهيمها الزائفة المتمثلة فى الغلــب بقوة السلاح والبغى والشر.

وأن يرد إليها معناها الحق.. فالبطولة هى الســمو علــى الحقد، والتفوق على العنف والشر والباطل، بالمحبة والخير والحق.

* * *

ولما كانت الوطنية النابحة بالتعصب الذميم لنفسها، عمــل يحمل طابع المقاومة للحق والحب، والمقاومة لكــل محــاولات التآخى المحترم بين جميع البشر، فإن الضمير فى تجربــة غــاندى يرسم من أقوال الرجل ومن سلوكه مايزجر هذا النــوع مــن الوطنية الضيقة المغلقة.

● ـ"إننى أدعو نفسى وطنيا، لكن وطنيتى واسعة كــالكون الرحيب.. إنــها تضم فى فؤادها سائر أمــم الأرض، وتعمــل وطنيتى من أجل كرامة العالم كله ورفاهيته .

"إننى إذا كنت أنشد فى الهند أمة قوية، فليس لكى تســتغل أو تتشامخ، بل لتكون للدول الأخرى قدوة ومثلا"

* * *

ولما كان دين الأمة وثقافتها أهم الخصائص الــتى تحــدد شخصيتها، فقد أراد غاندى ألا تجيئ انعكاسات الدين والثقافــة

على أمته مناهضة لتبعاتها الجديدة تجاه الإخاء العالمى والمحبة الشاملة، من أجل هذا قال :

ـ"إن الديانة الهندية ليست ديانة مغلقة ، بل إنما لتتسع لعبادات جميع الأنبياء ..

"وهى تنصح كل إنسان أن يعبد الله وفق دينه وعقيدته"

وقال عن الثقافة :

ـ"إن الثقافة الهندية ليست هندوسية ولا إسلامية، ولا غير هذين.. إنما هى مزيج من الثقافات جميعا"

* * *

● ـ"أريد أن تهب رياح الثقافات من جميع البلدان وتصدح حول بيتى فى حرية.. ولكنى أرفض أن تقتلعنى من مكانى ثقافة منها؛ ذلك لأنى أرفض أن أعيش تابعا أو عبدا" ..

* * *

إن الوحدة البشرية تستكمل خصائصها فى وعى ذلك القديس والزعيم .

وهذه الوحدة وإن كانت تصنع مصيرها بيديها وإرادتها إلا أنها لاتبلغ من الغرور ما يجعلها تكفر بوجود إله عادل وعظيم.

- ـ"إنى مثل أى هندى آخر، أومن بالله، وبالتوحيد".

والأديان ـ هذه القوى الهادية الصامدة التى أعطت الإنسانية من الرشد والسمو ما أعطت، لاتحركها فى تجربة غـــاندى إرادة التنافس ـ بل إرادة التكامل .

- ـ"إننى أومن أن التوارة ، والإنجيل، والقرآن والزندافستا ـ أى كتاب زرادشت ـ كلها ملهمة كالفيدات تماما "..

* * *

ولقد عاش غاندى القديس والعابد وفق هذا المبدأ.

وحين إغتالته رصاصات آثمة، كان لسانه لا يـــزال رطبـــا بصلاته التى كان يتلو بين تراتيلها ـ﴿قـــل هـــو الله أحـــد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحدا﴾ ..

أجل.. كان يضمن صلواته دوما آيات من التوراة. ومـــن الإنجيل، ومن القرآن، ومن كتب الديانة الهندية (الفيدات) ..

ألا وإن غاندى الذى تلقى من عصر النبوة احترام الديـــن، قد تلقى من عصر العقل احترام الاقتناع، فكان يناقش الأديان فى غير تطرف أو سفسطة، ولم يكن الإيمان بالله ، ولم تكن عبادتـــه يعنيان عنده الحياة فى صومعـــة، أو حـــتى نشـــدان الخـــلاص الشخصى.. بل كانا يعنيان تحرر الـــروح الإنســـانى والمصـــير

الإنسانى من كل معوقاتهما، وبعث الفرد المتفوق على أهوائـــــه والعامل فى خدمة الجنس البشرى على أساس من الحق والحب..

* * *

إن بـــهاء التجربة الإنســـانية فى "غـــاندى" وعظمتـــها، يتمثلان فى أنه لم يكن مجرد قديس، ولا مجرد زعيم روحى. بـــل كان زعيما سياسيا يتعامل مـــع دول، وحكومـــات، ووزارات خارجية تعج بالحيل الشيطانية، وكان وضعه هذا يدعوه كمـــا يدعو سواه إلى اصطناع الوسائل الدبلوماسية التى كثيرا ما تعتمد على الكذب والمخاتلة، ومع هذا فقد نجح نجاحا عظيمـــا فى أن يستمسك بوسائله هو. وبلغ بـــها وحدها كل ما أراده لأمتـــه من وحدة واستقلال، وكل ما أراده للبشر من قدوة . لكأنما أراد الضمير الإنسانى أن يقول لعصرنا من خلال تجربة غاندى هـــذه: إن هذا الطراز من الزعامة السياسية هو الذى يجب أن يكـــون.. هو الذى جاء دوره وأهلت أيامه ..!!

إنـــها الزعامة التى لاتربط نضالهـــا بالغايـــات العظيمـــة فحسب، بل وبالوسائل العظيمة والنظيفة، أولا، وقبلا..

إن ـ راجندرا برازاد ـ رئيس جمهورية الهند السابق يـــروى لنا هذه الواقعة فى كتابه:"عند قدمى غاندى"

● ـ"ذات يوم قدم إلينا أحد موظفى الحكومة بصفة سوية نسخة من تقرير كان قد قدم إلى المسئولين البريطانيين فى الهند، فحملنا التقرير إلى ـ غاندى ـ بيد انه عرف قبل أن يقرأه الطريقة التى حصلنا بها عليه.. فما كان منه إلا أن أبى الإطلاع عليه ورغب فى إعادته إلى الموظف الحكومى.. تلك كانت الطريقة التى عملنا بها الصدق فى العمل"..!!

* * *

إن غاندى يعلم البشرية باسم الضمير الإنسانى أن الوسائل أهم من الغايات.. فنحن نعيش مع الوسائل أكثر أكثر مما نعيش مع الغايات.. إن الغايات قد تتحق آخر العمر.. وقد نرحل عن الدنيا فور تحققها.. أما الوسائل فنحن نقضى عمرنا كله أو أكثره معها، ومن ثم فهى التى تصلنا، وتصوغنا، وتنهى فينا إرادة الخير إذا كانت قويمة، أو إرادة الشر إذ كانت رديئة.

أجل.. إن حياتنا فى مجموعها ليست إلا تلك الوسائل التى نتوسل بها لتحقيق أهدافنا .

وهذا هو الذى منح حياة غاندى، وبالتالى منح تجربته تكاملا فذا وباهرا .

لقد كان غاندى رياضته الروحية الخاصة التى لايكلف

بـــها إلا من يطيقها ويختارها، والتى لا ينبغى أن تتخذ مـــبررا لوصف تجربته بالمثالية المفرطة.

فأسلوب غاندى فى التقشف، وفى الصيام، والصمـــت، وفى قصر طعامه على أنواع محددة كالبندق والتمـــر ولـــبن المـــاعز وامتناعه عن أكل اللحوم احتراما لحق الحيوان فى الحياة..

كل هذه ليست من التبعات الأساسية التى تتطلبـــها "تجربة غاندى" لخلق عالم يقوم على الحق والحب .

إن جوهر هذه التجربة تتمثل فى قدرتـــها على ملء الفراغ الوهمى القائم فى الحياة الإنسانية، كيما تجد تكاملها .

* * *

ومن ثم فإن بطل عصرنا وأستاذه قد وضع أقدام البشـــرية والحياة فوق الطريق المستقيم .

إنه لم يؤمن بفراغ بين السماء والأرض، فآمن بالله الـــذى يملأ الكون بأسره ..

لم يؤمن بفراغ بين الأديان؛ فعبد الله بـــها جميعا ..

لم يؤمن بفراغ بين الناس فقاوم آفة الطبقية، وعاش بـــين المنبوذين ..

لم يؤمن بفراغ بين شعوب الأرض، فنذر حياته لســـلامها

جميعا، وحريتها جميعا ..

لم يؤمن بفراغ بين الوسائل والغايات، فمارسها جميعا على نمط واحد من الاستقامة ورفعة الضمير ..

لم يؤمن بفراغ بين الزعامة والأمة، فتخلى عن أرباحه الحلال الهائلة، وشارك الملايين تقشفها ومعاناتها، ورفض دوما أن يفرض آراءه، أو ينفرد من دون الناس بقرار..

لم يؤمن بفراغ بين القانون والحكومة فقدس العدل والحرية..

لم يؤمن بفراغ بين الروح والجسد فمزجهما معا فى شخصه المهيب وصاغ منهما أعذب تسبيحة فى عالم الطهر الإنسانى والكمال البشرى ..

* * *

تلك هى تجربة الضمير الإنسانى التى تنتظم كل محاولاته الخيرة..

لقد كانت الهند "بيت" غاندى ..

وكان العالم "وطنه" ..

فماذا كانت رسالته نحو الهند وماذا كانت رسالته نحو العالم ..؟

أما رسالته نحو الهند ، فكانت أن يوحدها، ويحررهـــــا.. ولقد أتم ذلك بنجاح .!!

وأما رسالته نحو العالم، فأن يعطيه المثل الصحيح فى قـــدرة الحق والحب على حفظ الحياة وتحقيق السعادة ..!!

لا ينبغى أن يقال هنا: لكن غاندى بشير الحق والحب قـــد ذهب صريع الكراهية والغدر.. فالطريقة التى انتهت بـــها حياة غاندى لم يكن منها بد لكى يبلغ الدرس العظيم تمامه. فلكـــأن القدر يقول لنا، والضمير الإنسانى يصيح فينـــا : انظـــروا، إن المحب الودود الذى لم يؤذ طوال حياته بعوضة.. إن خير وأعظم رجال عصركم بأسره، لم ينج من أذى الكراهية التى تحملونـــها فى قلوبكم، والسلاح الذى تحملونه بأيديكم، فهل بقى ريـــب فيما يدخره العنف لكم من سوء المصير..!!!؟

* * *

إذا بقى فى العالم دولة واحدة تحمل أسلحة الفناء فسيكون ذلك مبررا أكيدا لكى تحمل كل الدول سلاحها، فالعنف ينادى العنف ومن هنا تعلن "تجربة غاندى" أن المصـــير الإنســانى لم يتطلب وحدة العمل الإنسانى فى شىء كما يتطلبـــها اليـــوم فى نبذ العنف.. ونـــزع السلاح وإلغاء الحرب ..

ولا أريد أن أقول إن على العالم أن يختار بين طريقين.. إذ ليس أمام العالم سوى طريق واحد هو الطريق الذى اختاره غاندى.. الحق والحب.. حيث تختفى الحرب، والسلاح ، والكراهية ، والباطل ..

وهى الطريق التى سارت عليها تجربة الضمير الإنسانى ووحدته منذ بدأ سيره من آلاف السنين.. وهو غرض الحياة الذى يبدو من إصرار الضمير على إدراكه، أن الله سبحانه قد خلق البشرية لتحقيقه ..

لقد كنا حين نصغى لهذه الدعوة، وهى تأتينا من نبى، أو مصلح قديم، نقول : تلك مثاليات أزمان بعيدة، لم يكن فيها ذرة ولاصواريخ ..!!

أما اليوم، فقد أثبتت تجربة الضمير مع غاندى، أن هذا النهج لم يكن صحيحا، ولاضرورة، ولاممكنا فى عصر من العصور، مثلما هو صحيح، وضرورى، وممكن، فى عصرنا هذا.

وإن تجربة "الحق والحب" هذه. فى عصر "غاندى والذرة" لتعتبر فى تاريخ البشرية كله نهاية مسير، وبداية مصير..

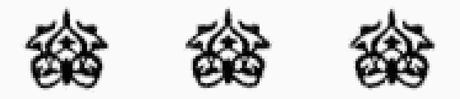
وإن عصرنا لهو الطليعة ..

فهل سيعجزه حمل الرسالة ..

كلا، ولو بدا ذلك مستحيلا ..

فإنه لامستحيل على القلب الشجاع ..

وإن عصرا يحمل تجربة غاندى فى يمناه.. ويحمل أســـــرار الذرة فى يسراه.. لهو عصر ، شجاع قلبه.. وثيق عزمه.. مبشرة أيامه ... !!



# المراجع

## الفصل الأول

١. ما قبل الفلسفة

تأليف: هـ. أ. فرانكفورت وهـ. فرانكفورت وجـون أ. ولسـن وتوركليد جاكبسون. ترجمة : جبرا إبراهيم جبرا

٢. فجر الضمير

تأليف: برستد ترجمة: سليم حسن

٣. قصة الحضارة ــ جزء ٢،٣،٤

تأليف: ول ديورانت: ترجمة، د.زكى نجيب محمود ومحمد بدران

٤. الأدب المصرى القديم

تأليف: سليم حسن

٥. سقراط، الرجل الذى جرؤ على السؤال

تأليف: كوراميسن ترجمة : محمود محمود

٦. إنه الإنسان

تأليف: خالد محمد خالد

## الفصل الثانى

٧. القرآن الكريم

٨. الكتاب المقدس: سفر التكوين ـــ إنجيل متى

٩. تجديد التفكير الديني في الإسلام

تأليف: محمد إقبال ترجمة: عباس محمود

١٠. معالم تاريخ الإنسانية ـــ جزء ٣

تأليف: ولز ترجمة: عبد العزيز جاويد

١١. معا على الطريق، محمد والمسيح.

تأليف: خالد محمد خالد.

## الفصل الثالث

١٢. العلوم عند العرب.

تأليف: قدرى حافظ طوقان

١٣. إنسانية الإنسان.

تأليف: رالف بارتون برى ترجمة: سلمى الخضراء الجيوشى

١٤. أربعة أيام من يوليو.

تأليف: كورنل لنجيل ترجمة: أحمد عبد الرحمن حموده

١٥. تاريخ إعلان حقوق الإنسان.

تأليف ألبير بايه ترجمة: محمد مندور

١٦. كوخ العم توم.

تأليف: هرييت بيتشر ستاو ترجمة: منير البعلبكى

## الفصل الرابع

١٧. أساطين العلم الحديث.

تأليف: فؤاد صروف

١٨. فلسفة الهند ـــ سيرة يوجى.

تأليف: برمهنسا يوجانندا ترجمة: زكى عوض

١٩. عند قدمى غاندى.

تأليف: راجندرا برازاد ترجمة: منير البعلبكى

٢٠. اكتشاف الهند.

تأليف: نـــهرو ترجمة: دار العلم للملايين

## كتب المؤلف

١- من هنا نبدأ
٢- مواطنون .. لا رعايا
٣ - الديمقراطية، أبدا
٤- الدين للشعب
٥- هذا .. أو الطوفان
٦- لكى لا تحرثوا فى البحر
٧- لله والحرية. (ثلاثة أجزاء)
٨- معا على الطريق محمد والمسيح
٩- إنه الإنسان
١٠- أفكار فى القمة
١١- نحن البشر
١٢- إنسانيات محمد
١٣- الوصايا العشر
١٤- بين يدى عمر
١٥- فى البدء كان الكلمة
١٦- كما تحدث القرآن
١٧- وجاء أبو بكر
١٨- مع الضمير الإنسانى فى مسيره ومصيره
١٩- كما تحدث الرسول (مجلد)
٢٠- أزمة الحرية فى عالمنا
٢١- رجال حول الرسول (مجلد)
٢٢- فى رحاب على
٢٣- وداعا عثمان
٢٤- أبناء الرسول فى كربلاء
٢٥- معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز
٢٦- عشرة أيام فى حياة الرسول
٢٧- .. والموعد الله
٢٨- خلفاء الرسول (مجلد)
٢٩- الدولة فى الإسلام
٣٠- دفاع عن الديمقراطية
٣١- قصتى مع الحياة
٣٢- لو شهدت حوارهم لقلت
٣٣- الإسلام ينادى البشر
٣٤- إلى كلمة سواء (تحت الطبع)
٣٥- قصتى مع التصوف

---

تطلب كتب المؤلف من دار المقطم للنشر والتوزيع بالقاهرة

رقم الإيداع ١٣٧٥٦ /٢٠٠٤
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-5732-37-9

# مع الضمير الإنسانى

## فى مَسيرِه ومَصيرِه

إن هذا الكتاب يُمثِّل رُؤية تاريخية لموكب "الضمير الإنسانى" فى رحلته، منذ بدأ مَسيره حتى يومنا هذا . رُؤيةً تسعى إلى استجْلاء الخصائص التى يقود الضمير بها قافلة الإنسان صوْب كمالِها المقدور، كما تُحاول استِشراف المستقبل الواعِد لبنى الإنسان من خلال التجربة الحيَّة للضمير.

ولئن كان ثمَّت ما تعارفَ الناس على تسميته بـ "الضمير الدولى" أو "الضمير العلمى" أو "الضمير الدينى" أو "الضمير الاجتماعى" - فإننا نعنى بـ "الضمير الإنسانى" ما هو أعمُّ من هذا كله، وأكثر شمُولا .

خالد محمد خالد





٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين - القاهرة

تليفون : ٧٩٥٨٢١٥ - ٧٩٤٦١٠٩ - فاكس : ٥٠٨٢٢٣٣